

ذكر أبي الحسن بن سيمجور في قيادة الجيوش إلى أن قضى نحبه، وانتقال الأمر إلى ابنه أبي علي، واستقامة ولايته وقراره بنيسابور، وانحذار أبي العباس تاش إلى جرجان مخليا أمور خراسان

وانصرف عسكر أبي الفوارس بن عضد الدولة إلى كرمان، وعاد فائق إلى بلخ، واستقر أبو علي بهراة. وكان ابن عزيز يستحث أبا الحسن على قصد جرجان، ويؤنبه على التقاعد عنها، وهو يستمر على المعلوم من عادته في استشعار الحلم، واستحباب السلامة والسلم، إشفافا من عثرة قدم تفضي إلى ندم، كالتي عرضت لأبي العباس تاش بجرجان من الكشفة التي جلبت على الدولة من الوصمة ما سار في البلاد خبره إلى أن أقيم أبو علي محمد بن عيسى الدامغاني للوزارة، وذلك في جمادى الآخرة من سنة سبع وسبعين وثلثمائة. ونفي ابن عزيز إلى خوارزم، فجهد أبو علي في تسديد الأعمال، وحفظها على الاعتدال، فأعياه ما أراد لانسداد الولايات، وتراجع الارتفاعات، واستشراء الحشم، وضراوة الأتراك، وتسحبهم على الوزراء، واحتكامهم في المطالب خلعا للجام المراقبة، وأمنا من مر السياسة وصدق المؤاخذه. فصرف بأبي نصر بن أبي زيد، وهو الشهم الذي يصيب المحز في أقواله، ويطبق المفصل في أفعاله، ويبد الكفاة بغنائه ومضائه، وصواب تدبيره وآرائه.

ثم بدا لهم في أمر أبي علي، فرد ثانيا إلى مكانه، من صدر ديوانه. واتفقت لأبي الحسن بن سيمجور بين هذه الأحوال نهضة إلى خرمك، بعض منتزهاته بواحدة من حظاياه، فخاتته نفسه خلال الرفث إليها، وخز إلى الأرض عن صدرها ميتا. وأخفي خبر وفاته، إلى أن رد إلى داره، واستعد لإظهاره.

وورث أبو علي رئاسة بيته وإخوته وجيشه، فسد الثلثة الحادثة بأبيه برفق سياسته، وحسن رعايته، وحفي إيالته وولايته. وحسنت طاعة أبي القاسم أخيه، وسائر إخوته له، وعم رضاهم به.

وبلغ أبا علي أن هراة سميت لفائق، فقصدها أبو علي وكتب إليه يعاتبه على ما استجازه من الخطبة على خطبته. ثم اتفقا على أن تكون هراة لفائق، ونيسابور مع قيادة الجيوش لأبي علي. ورتب كل واحد منهما أصحابه بناحية عمله، وحملت الخلع من

بخارى على الرسم لولاية الجيوش، وأبو علي يظن أنه هو المقصود بها، والمحبو بالكرامة فيها، حتى إذا بلغ الرسول منتصف الطريق، عدل إلى فائق بما صحبه، فعلم أنه مكر مكروه، وغدر أسروه، وأنه هو المقصود بالسوء والمراد بالمحذور. فلما علم أن فائقا شخص عن هراة، نهض أبو علي من نيسابور كالسهم المرسل والشهاب المرصد، حتى انقض عليه فيما بين هراة وبوشنج فعل من اتخذ الجد خدنا وصاحباً، ونكب عن ذكر العواقب جانباً. وعلم أنه متى استمرت به تلك الحيلة، ونفذت فيه تلك المكيدة، وعرف جنبه وخوره، لم ترتفع له ولا لأهل بيته راية، ولم تعرف لانتقاض الأمور عليهم، وانسياب المحذور إليهم من كل وجه غاية.

فصدق قتاله آخذاً بفرط الجد والتشمير، ودق عسكره دق المضرب أستاذ المسامير، فولوا به منهزمين إلى مرو الروذ، وأردفهم أبو علي بعدة من قواده للتشريد به في مهره، فوافقوه بقنطرة مرو الروذ، مستعداً للمدافعة، ومحتشداً للمنازعة. فقارعهم حتى أسر عدة منهم، وحملهم إلى بخارى.

وسار أبو علي إلى مرو خاطباً عمل أبيه، ومدلاً بسابق حرماته ومساعيه، ومتكثراً بإخوته وذويه، فحقق الرضا سؤله، وجرد إليه فيما استدعاه رسوله. وقرر قيادة الجيوش عليه، وناط مصالحهم بيديه، وجمع له بين ولاية نيسابور وهراة وقهستان، ولقبه بعماد الدولة. فانكفاً إلى نيسابور وقد نال ما أراد، فهذب الأعمال، ورتب الأحوال والرجال. وأخذ أمره يزداد نورا وبهاء، ويتضاعف قوة واستعلاء، إلى أن تلقب بأمير الأمراء المؤيد من السماء. وامتدحه أبو بكر الخوارزمي بقصيدة أولها:

إن الألى خلف الخدور	هم في الضمائر والصدور
وقع الغبار عليهم	فغدا يتيه على العبير
لما مشين على الثرى	تاه المعار على المعير
وأعرتهم نظري فما	ردّ المعار على المعير
فغدوت في حال الأسى	ر ورحت في حال الحسير
وكذاك من عشق النجو	م ورام صيدا للبدور
يا سائلي ما في البرا	قع والهوادج والستور
فيها الرضاع من المنـ	ية والفظام من السرور

وسألت من زوج المنا	بر حين يخطب والسرير
فهو الأمير ابن الأمير	ابن الأمير ابن الأمير
المشتري المدح القليـ	ل بماله الجـم الغفير
من سيفه كسر الجبير	وسـييه جبر الكسير
والناظم المعنى الطويـ	ل بلفظه النزر القصير
يرمي أعاديـه بسـهـ	م من سعـادته طـريـر
حتى لو افترشوا الحـريـ	ر لشاكهم مـسـ الحـريـر
ويؤنـث الـبـهـم الـذـكـور	بـتـلـكـم الـبـيـض الـذـكـور
وسـهـامـه نـوب الـخـطـو	ب وقوسـه عـقـب الـدـهـور
ورماحـه حـشـو العـدي	وعـداتـه حـشـو القـبـور
اسـتـغـفـر الـرحـمـن بـلـ	حـشـو الخـوامـع والنـسـور
ويصـوم صـارمـه فيـفـ	طـر بالـجـمـاجـم والنـحـور
وإذا أتـاه سـائـلا	رـب الشـوـيـهـة والـبـعـيـر
أبـصـرته بفنائـهـ	رـب الخـورنـق والسـديـر
أـمـحـمـد بـن مـحـمـد	هـذي الثـمـاد مـن الـبحـور
لو كـانـت الـدنـيا تـدو	ر عـلى الحـقائـق فـي الـأـمـور
ما صـيـغ تـاج مـحـمـد	إلا مـن القـمـر المـنـير

وأناه البديع أبو الفضل الهمذاني^(١) وهو بمرور فمدحه بالقصيدة التي أولها^(٢):

[مجزوء الرمل]

(١) أبو الفضل الهمذاني (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ، ٩٦٩ - ١٠٠٨ م). أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني المشهور ببديع الزمان، عربي الأصل فارسي النشأة، من أشهر الكتاب الشعراء في القرن الرابع الهجري. وُلِدَ في همدان وتلمذ على يد أبي الحسين، أحمد بن فارس اللغوي الكبير، وعلى يد عيسى بن هشام الإخباري وغيرهما.

اتسمت حياته القصيرة نسبياً بكثرة التنقل والترحال. فقد ارتحل عن همدان سنة ٣٨٠ هـ، وكان عمره آنذاك نحو اثنتين وعشرين سنة. وقصد الوزير الكاتب صاحب ابن عبّاد في الرّي ومكث عنده زمناً. ثم ترك صاحب وارتحل إلى جرجان حيث أقام بها مدة على مداخلة الإسماعيلية والتّعيش في أكنافهم، كما يقول الثعالبي. لكن المقام لم يطب له فيها طويلاً فتركها وقصد نيسابور التي وافاها سنة

عليّ أن لا أريح العيس والقتبا
وأترك الخود معسولا مقبلها
حسبي الفلا مجلسا والبوم مطربة
وظفلة كقضيبي البان منعطفها
تظل تنثر من أجفانها حبيبا
قالت وقد علقت ذيلي تودعني
لا درّ درّ المعالي لا يزال لها
يا مشرعا للمنى عذبا موارده
أطلعت لي قمرا سعدا منازلها
كنت الشيبية أبهى ما دجت درجت
أستودع الله عينا تتحى دفعا
وظاعنا أخذت منه النوى وطرا
غضبي عليك قناع الصبر إن لنا
أبي المقام بدار الذل لي كرم
وعزمة لا تزال الدهر ضاربة
يا سيد الأمراء افخر فما ملك
إذا دعتك المعالي عرف هامتها

وألبس اليد والظلماء واليلبا
وأهجر الكأس تغذو شربها طربا
والسير يسكرني من مسّه تعباً
إذا مشت وهلال الشهر منتقبا
دونى وتنظم من أسنانها حيبا
والوجد يخنقها بالدمع منسكبا
برق يشوقك لا هونا ولا كثبا
بيناه مبتسم الأرجاء إذ نضبا
حتى إذا قلت يجلو ظلمتي غربا
وكنت كالورد أذكى ما أتى ذهباً
حتى تؤوب وقلبا يرتمي لهبا
من قبل يقضي الهوى من حكمه أربا
إليك أوبة مشتاق ومنقلباً
وهمة تصل التوحيد والخيابا
دون الأمير وفوق المشتري طنبا
إلا تمناك مولى واشتهاك أبا
لم ترض كسرى ولا من قبله ذنبا

٣٨٢هـ، بعد أن سلبه قُطَاع الطريق وهو في طريقه إليها. وكانت نيسابور آنذاك موطنًا للأديب الكبير أبي بكر الخوارزمي، الذي يبدو أن بديع الزمان كان يؤمل الخير على يديه. لكن الخوارزمي لم يُحسن إليه وخيَّب ظنه، فأبغضه بديع الزمان ودخل معه في مناظرات مشهورة (رواها بديع الزمان نفسه) حول عدد من الموضوعات الأدبية. وقد استطاع بديع الزمان - بتأييد جماعة من سكان نيسابور - أن ينتصر على الخوارزمي الذي لم يعيش طويلاً بعد هذه المناظرات فخلا الجو لبديع الزمان.

انظر ترجمته في: الأنساب ٥٩٢ / ١، وقيمة الدهر ٤: ٢٤٠ - ٢٨٣، ووفيات الأعيان ١: ٤٧، ٤٨، وتذكرة الحفاظ ٣: ٢١٧، ومعجم الأدباء ٢: ١٦١ - ٢٠٢، والبداية ١١: ٣٤٠، والكمال في التاريخ ٩: ٧٢، وشذرات الذهب ٣: ١٥٠، والنجوم الزاهرة ٤: ٢١٨، ٢١٩، ومرآة الجنان ٤٤٩، ٤٥٠.

(١) انظر: قيمة الدهر ٣٣٥/٤.

ذكر أبي الحسن بن سيمجور في قيادة الجيوش إلى أن قضى نحبه _____ ٧٥

أين الذين أعدوا المال من ملك	يرى الذخيرة ما أعطى وما وهبا
ما الليث محتطما والسيل مرتطما	والبحر ملتطما والليل مقتربا
أمضى شبا منك أدهى منك صاعقة	أجدى يمينا وأدنى منك مطلبا
وكاد يحكيك صوب الغيث منسكبا	لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت	والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا
يا من يراه ملوك الأرض فوقهم	كما يرون على أبراجها الشهبا
لا تكذبن فخير القول أصدقه	ولا تهابن في أمثالها العربا
فما السموأل عهدا والخليل قرى	ولا ابن سعدى ندى والشنفرى غلبا
من الأمير بمعشار إذا اقتسموا	مآثر المجد فيما أسلفوا نهبا
ولا ابن حجر ولا ذبيان يعشرني	والمازني ولا القيسي متدبا
هذا لركبته هذا لرهبته	هذا لرغبته هذا إذا طربا

نعم، واستولى على بلاد خراسان وارتفاعاتها، فجبيت له عن آخرها. وكتب الرضا إليه يستنزله عن بعضها لأطماع حشمه، وعوارض نوبه، فاعتلّ عليه باستغراق أعطيات جيوشه ارتفاعات خراسان، وحاجته إلى زيادة يتحملها لتتمة أطماعهم في السنة، وهو في ذلك يخلط طاعة بجفاء، ويسرّ حسوا في ارتغاء.

ونصب أبا علي النسفي لصحابة الديوان، وبسط يده في المصادرة والاستخراج حتى كنس خراسان فلم يبق بها ذو درّ إلا أدمى خلفه، وألصق بظهره بطنه. ثم طالبه بأداء ما رفع عليه، وأمر بدق يديه على رجليه، إلى أن أعفى ببعض المال، ومات بأخرة على شرّ حال.

وصار يكاتب الملك الملقب بشهاب الدولة وظهير الدعوة هارون بن أيلك بغراخان، وهو ببلاد الترك سرا على أن يتشاطر خراسان وما وراء النهر متى ملك على الرضا بخارى، فكان مثله كما قيل:

بمحمد سلّوا سيوف محمد رضخوا بها هامات آل محمد

وهو في ذلك كله يقيم رسم الخطبة وشعار الدعوة استعمالا بزعمه للتقية أو تحمدا إلى الرعية.

وقد كان طائفة من دهاقين ما وراء النهر قد أملتّهم أيام تلك الدولة، فقرمت نفوسهم إلى الاستجداد، والإحماض به عن خلّة الألفة والاعتیاد، فواصلوا بغراخان بكتبهم في تورّد ذلك الحریم شاحدين عزمه في المضاء والتصميم، فصار يتطرف تلك الحدود شيئا فشيئا كالبازي يحل نصاح أجفانه على التدريج تأنيسا له من الوحشة، وتسكينا من الروعة، وتضرية على القنص، إلى أن ورد إسبيجاب، فأنهض من بخارى إينج الحاجب في طلبه، وردّه على عقبه، فالتقيا على حرب أشابت الذوائب، وأنارت الكواكب، ثم انجلت عن أسر إينج الحاجب في الكبار من القواد والكثير من الأفراد. واستحكم لذلك طمعه في تورّد سائر البلاد، والإغارة على الطريق والتلاد.

ذكر فائق وما انتهى إليه أمره بعد الواقعة المذكورة

وأقام فائق بناحية مرو الروذ على رمّ الرث، وجبر الكسر، وأسو ما فشا في عسكره من كلوم الحرب. فلما التحم أمره، وانضم نشره، سار يريد بخارى من غير استثمار واستطلاع رأي، فارتاب الرضا به. فلما قاربها، برز إلى فضاء السهلة ببابه، ورماه بإيـنـج وبكتوزون الحاجبين، وسائر مواليه وموالي أبيه وذلك في يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثمانين وثلثمائة. فلما رهقه الكفاح، وعضّه السلاح، أجفل إـجـفال الظلـيم. واقتسمت الهزيمة أصحابه بين القتل والتنكيل، والأسر والتذليل، ووافى الشط منهزمه فوجد السفن مغيبة، فركب الخطر، واحتال حتى عبر، وسار إلى بلخ على أن ينتاش منها ويرتاش، وأقام بها أياما ثم عبر إلى ترمذ، وواصل بغراخان بكتبه يبعثه على الانحدار، ويحثّه على البدار.

وخوطب من بخارى والي الجوزجان أبو الحارث محمد الفريغوني بقصده وحصده، فجمع بوشا عظيما، وساق من أرض الجوزجان بريما، طارئا ومقيما. فانتدب لهم أحد غلمانه وكان يعرف بأرسلان آخر سالار في زهاء خمسمائة من الترك والعرب، فانقضوا عليهم انقضاص الصقور على بغاث الطيور، فمزقوهم بددا، وجعلوهم طرائق قدا، وفرشوا الفضاء بجثث القتلى، وغنموا مالا لا يعد ولا يحصى، وعادوا إلى بلخ ظاهرين.

وقد كان طاهر بن الفضل ملك الصغانيين على أبي المظفر محمد بن أحمد، وهو واحد خراسان جلالة قدر، ونباهة ذكر، ومتانة رأي وحجر، ورسانة نظم ونثر، فانقطع أبو المظفر إلى جانب فائق صارخا فزعا، فأحسن إصراخه، وأمدّه بمن يردّه وراءه، فاغتنم طاهر بن الفضل خفة أصحاب فائق ببلخ، فلفت لفته إليها طامعا في الاستيلاء عليها. فزحف المقيمون بها لمدافعته، ونهـدوا لمناجزته، وتناوشوا القتال، وصدقوا المصاع والصيال. وثقف بعض العرب مكان طاهر بن الفضل فقصد قصده بطعنة في منكبه، أذرتة عن مركبه، وبادـره فاحتـرّ رأسه عن مركبه. وثار الصياح بقتله؛ فولّى أصحابه على الإـدبار هاربين بين سمع الأرض وبصرها، وهائمين أثناء حجرها ومدرها. ولما جرى في أمر إـنـج الحاجب ما جرى، ونقل إلى بلاد الترك في جملة الأسرى، انتفضت مرائر الأعمال بما وراء النهر، ووهت قواها، وتداعت قواعدها وبنائها.

فأشفق الأمير الرضا وأركان دولته من أن يتفاقم الأمر، ويتراكم الشر، ويعضل حادث الداء، وينضب باقي الماء. فخطب فائق في الاستمالة، وقوبلت عثرته بالإقالة، واستنهض إلى بخارى للاستظهار به على سدّ الخلل، وتعديل الميل. وسرب عنها بعد حسن القبول والإقبال، وإزاحة العلة بالأموال إلى سمرقند، فلم يره إلا خبر بغراخان وهو الملقب بشهاب الدولة وظهير الدعوة، وقد استعار إليه قوادم الطير ركضا، لم ينل فيه جماما ولا غمضا، فولّى فائق من سمرقند من بين يديه هزيما، ولم يلو على تعرف الحال مقيما، وجعل من كان معه من أصحاب السلطان عرضة للسيوف، وفريسة لأنياب الحتوف.

وتوافقت الشهادات على أن انهزامه كان عن مواطأة منه لبغراخان، على آل سامان، فعل من لا وفاء يزعه، ولا حياء يردعه، ولا نعمة تحفّه، ولا حرمة تكفّه. وسار كما هو حتى أقعى بعقوة بخارى، فراع السلطان بالدهاية الدهياء، والخطة النكراء، والقضاء المبرم من السماء، حتى اضطر إلى مفارقة الدار، واللياذ بذمة الاستتار.

ذكر ورود بغراخان بخارى، وهجرة الرضا عنها، وانصرافه ثانيا إليها بعد فصول بغراخان عنها

ودخل بغراخان بخارى، فاستقبله فائق مختصا به، ومنخرطا في سلكه، ومكثرا لسواده، وملقيا إليه لين قياده، كأنهما كانا على ميعاد، وتلاقيا على سابق صحبة واتحاد. ولما استقرت الدارية قرارها، استأذنه فائق في النهوض إلى بلخ لا ستضافتها إلى ولايته، وإثارة أموالها لخزائنه، فأذن له فيه وسار إلى ترمذ، وبعث بعثا إلى بلخ، فاحتاط عليها، ونصب بها من يجبي الأموال ويدبر الأعمال.

واهتل الرضا فرصة البروز من مستتره في بزة النكرة حتى عبر النهر إلى آمل الشط، وقد كان هاجر إليها أمامه عدة من خواصه وحجابه وغلمان داره عاثرين حائرين، فاعتدوا بمقدمه عيدا، وظنوا أنهم أنشئوا خلقا جديدا. وتلاحق بهم من ند من أبناء الهجرة من بخارى، فتموا عدة وعديدا.

واعتمد الأمير الرضا أبا علي البلعمي للوزارة، وضبط أطراف ذلك القدر من الإمارة، فعجز عن التدبير لضيق الحال والمجال، وانسداد وجوه الأموال، وتزايد عدد المهاجرين من الرجال. وقد كان نفي عبد الله بن عزيز إلى خوارزم بعد صرفه عن الوزارة، فأمر الرضا بالكتاب إليه في استحضاره لاستئناف الاعتماد عليه فيما كان يليه، واستكفائه المهم منه وفيه، فبادر إليه مغتتما خدمته في تلك الحال، متوصلا إلى ترضيه بوجوه الاحتيال.

وقد كان الرضا من لدن نجوم الشر واستطارة شرره بأعالي ما وراء النهر من جهة الترك ي كاتب أبا علي محمد بن محمد بن سيمجور، وهو الملقب بعماد الدولة، والمعتمد لحياطة الحوزة، وحراسة البيضة، في الاستنفار والاستمداد، ويتلطف له في التجشم للجهد، وتطهير تلك البلاد من ذوي البغي والعناد، بعد أن سامحه بأموال خراسان، وأغضى له عن ارتفاعاتها ترضيا له، واحتمالا منه، واستبقاء للصنيعة عنده، وطمعا في الانتفاع بشأنه، والاستظهار بمكانه، فيعده الاستعداد للنهوض، والاحتشاد للبروز، حتى استغرقت مواعيده شهورا عدة، ثم نهض من نيسابور إلى سرخس ومنها

إلى مرو في مثلها من المدة و يتربص في أثناء ذلك زحفة القوم وتغلبهم، فيشاطرهم الملك على حاجز النهر، فيكون له ما دونه، ولهم ما وراءه.

وكان قد اتصل به وبخدمته طائفة يزينون له هذا الرأي، ويحلّونه في عينه، ويجلونّه في معرض التصويب عليه تقربا إليه، ويوحون إليه أنها دولة قد تمت أيامها، وحن أن ينوح عليها أصدائها وهامها، لا استمرار العثرات عن الأطراف بها، وانشال الفتوق من كل الوجوه عليها، وأن المعني بنصرتها مخذول بخذلانها، ومحكوم عليه بالإدبار لإدبار زمانها، ووهي قواعدها وأركانها.

فلما استقر ذلك السلطان بآمل الشط، كتب إليه بأن الخفاء قد برح، والبلاء قد برّح، وأنه آن له أن يستأثر بعز الأحدوثة في مظاهرتة وموالاته، والاقتداء بسلفه الذين هم صنائع دولته، ودولة آبائه في طاعته ونصرة دعوته، وكف الأذى عن وجهه، وردّه إلى دار قراره، ومعشش أوليائه وأنصاره، فقد قطع طمعه إلا منه، واستشعر اليأس إلا من لدنه.

وقبل هجوم بغراخان على بخارى واصله بكتبه في الاستصراخ والاستغاثة، ومجاوزة التلطف إلى التضرع في الاستنفار والاستجاشة، فمن تلك الكتب فصل حفظته من إنشاء أبي علي الدامغاني وهو: «إنما تحتاج الدولة إلى عمادها إذا قصدها من يززع راسيات أوتادها، فالله الله في هذه الدولة، فقد جاءتك مستغيثة إياك، لا ئذة بك».

فكان تأثيره فيه تأثير الرّخاء في الصخرة الصماء، لا خدش ولا حكّ، ولا شقّ ولا شكّ، وفرش خلال ذلك فراش الدالة، والاقتراح يستزيد الرضا بإكرامه في المخاطبة على ما كان يخاطب به أبوه وغيره من أصحاب الجيوش به. ثم لم يرض بذلك حتى اقترح الجمع له بين التلقيب والتكنية على العنوان، منسوب الولاء إلى أمير المؤمنين وإنما ولاؤه لآل سامان. وقابل الرضا جميع ذلك بالإيجاب، ووفّاه بما اشتهاه من شريف الخطاب.

وقد كان يقترح ذات يوم على لسان خادم للرضا ورد عليه رسولا يعرف بأرسطاطاليس أيام مقامه بآمل الشط، زيادة على المبدول له تجرى مجرى الشطط والمحال. فقال أيها الأمير: إن ذلك السلطان اليوم، بحيث لو اقترحت عليه مخاطبتك

بالتأخير لفعل، ولكن وراء اليوم غد، فاختر لنفسك ما هو أجمل بك، وأزكى في
الأحدوثة عنك. فكادت عند ذلك العيون أن تصوب، والقلوب أن تذوب. واستمرت
القسوة به فلم يزد على وعد مطال، وتسويف ومطال، لا جرم أن الله تعالى كفى الرضا
شغل مادها، ونصره وآواه، وأعادته إلى خطته ومثواه، وختم بالخير عقباه، وأسلم الغادر
لما اكتسبت يده، وما الله بظلام للعبيد.

ذكر انصراف الرضا إلى بخارى بعد جلاء بغراخان عنها

وانفق أن مست بغراخان علة استوبل لها المقام ببخارى، فانزعج عنها عائدا وراءه، معاودا هواءه. وعمد أهل بخارى إلى نفاضات عسكره فطحروهم طحرا، ودحروهم دون حوالها دحرا. وبادر الأتراك الغزية على أثره شلا وطردا، وعركا وطحنا، ولم ينفك يمضي على الإحجام والانهمام، على ما به من ألم السقام، حتى ذاق كأس الحمام. وحين أحس الرضا بإجفاله على حاله، ابتدر العبور إلى بخارى فيمن تتام إليه من حاشيته ورجاله، فتباشر الناس بما أتاح الله من عوده إلى دار ملكه، وقرارة عزه تباشر الصيام بهلال الفطر، وذوي المحول والإعدام باستهلال القطر، وصفت له بخارى وسمرقند وما صابقهما من ولايته وسائر مملكته.

ولما رأى أبو علي ما استقام له من الأمر، وانضم إليه من النشر، وسقط من ناجم الشر، وخمد من نائرة الفتنة التي قدّرها صماء لا تسمع، ودهياء لا تنقطع، وانضاف إلى ذلك أن بغراخان لما ألقى عصا القرار ببخارى، كاتبه على الرسم الذي كان ولاية خراسان يكتبون أصحاب جيوشهم بها غير واف له بالشريطة التي كانا تعاقدا عليها، وتراضيا بها من النزول على رتبة التماثل، واقتسام جانبي الملك على حكم التناصف والتعادل، سقط في يده، وفّت في عضده، وذهب عليه أمره، وأظلم عليه رأيه، لإسفار الاختبار عن خلاف تقديره، وانكشاف العواقب عن ضد ما أجاله من قداح تدبيره، فاستشار نصحاءه فيما دهاه، واستقذح آراءهم فيما عراه، فأشاروا عليه بمعاودة التقرب، واستئناف التلطف، واحتيال ما يزيل عارض الوحشة، ويمحو سمة المعصية، ويسدّ خلل التقصير في الطاعة. فأعدّ من صنوف الأموال والهدايا ما رام ترضيته به قلبه عليه.

وسنح لفائق بعد إحساسه بعود الرضا إلى قرارة ملكه أن ينهد إلى بابه متغلبا عليه، ومتحكما على رسمه فيه. وقد كان دهن الرضا من جهته ما دهاه من جانب أبي علي تصامما عن ندائه، وتقاعدا عن فئائه، وتعامسا عن فرض طاعته وولائه، فضرب الرضا وجهه بوجوه حجابيه، ورجال بابه، وناوشهم الحرب بغلمان، وكافة أعوانه، حتى استلحمت العدد الجمّ من الفريقين، وفرشت الفضاء بالقتلى من الجانبين، ثم انفل عنهم هزيمة، وحثّ مركب النجاء حرصا على النجاة إلى الشط طريدا هشيما. فعبّر إلى بعض الأطراف، وتلاحق به من أخطأتهم ظبات السيوف، وحلق الإسار من أصحابه، فانحدر

بهم إلى أبي علي منفثلا في حبله، ومنخرطا في سلكه، ولائذا بذمته، ومستذريا بظل طاعته. فوافق أبو علي منه منيته التي كان يخطبها على الدهر باقتراحه، ويعدها على الحادثات أحدّ سلاحه، واستقبله بأهل عسكره على أتم إجلال وإعظام، وأعم إكبار وإكرام، وأحسن ترتيب وترحيب، وبشر ريق، وبرّ خصيب. وتنسم بمكانه روح الغنى عن الرضا، فصرف إليه ما كان أعدّه له من الهدايا مفصحا بالجفاء والخلاف، ومصرّحا بالتمرد والانحراف. وتحالفا على الصفاء والوفاء، والتظاهر على الأعداء، ونهضا إلى نيسابور للاستعداد وتخميم الرأي في حسم الفساد.

ولما يئس الرضا من صلاحهما له، دبّر في الاستعداد عليهما، والانتصاف منهما، بمن يشتد بأسه، ويجدّ في اللقاء مراسه، فوقف به التدبير على الأمير أبي منصور سبكتكين لما توسمه فيه من أمارة الخير باعتكافه على غزو الهند احتسابا لثواب الله، وادخارا لكريم القرية إلى الله، فأرسل إليه أبا نصر الفارسي النائب عنه ببابه، وكتب على يده يذكر ما أعياه من الداء بمكان موليه أبي علي وفائق، وخطبهما على دولته، وقصدهما إياه في نفسه ومملكته، واستثارهما عليه بارتفاعات حوزته، غير راجعين إلى حشمة، ولا راعيين لحق نعمة، ولا متمسكين من الحياء بعصمة. وإن الذي دهمه من أمورهما قد سدّ عليه وجه الخلاص، وطريق الانتصاف إلا من جهته، وما يرجوه من معونته. وأطف القول في استدعائه وتطميحه في جمال ما يتكلفه من نصرة أوليائه، بفرط قوّته وغنائه، فصادف وصول الكتاب والرسول نفسا منه مرتاحة لإجابته، منشحة لطاعته، تواقّة إلى مقام الجمال بارتهان رضاه وموافقته.

وبادر بالعبور إلى ما وراء النهر للقاء الرضا ومشاهدته، واستماع المقصود من رأيه وإشارته. ونهض الرضا إلى ناحية كشّ فخيم بها على مواعده، ووصل إليه الأمير سبكتكين فالتقيا هناك على أحسن ما سمع به في مثله من تسوية المواقب، وتعبئة الخيول والكتائب.

وقد كان الأمير سبكتكين يستعفي لشيبته عن متنزّل الخدمة، وملتزم الأرض على رسم الطاعة، فأعفي عنه اكتفاء بصدق العناية والرعاية منه حتى إذا اختلطت الخيول وامتدّت الصفوف وأصاب عيناه صحيفة وجه الرضا، أزعجته روعة الملك، وأبهة العز للنزول، والتبرع بما كان يستعفي منه قبل الوصول، فتلقاه الرضا بأتم الإكرام والإعظام،

ورعاية الحق والذمام، وجرى مشهد لم يسمع بمثله في الفخامة، وتباشر الخاصة والعامّة. وأمر الرضا بإقامة ما وجب إقامته من صنوف الأنزال، واتباع ذلك بما يصلح اتباعه من طبقات الرجال، وسأله بعد ذلك أن يفرغ له نفسه، ويصرف إلى قصد أبي علي وفائق وكفاية شرهما غروه، فضمن له حسن الطاعة، وبذل الوسع والاستطاعة.

واستأذنه في الانكفاء إلى وطنه ريثما يجمع متفرّق الأهبة، وينظم منتثر العدة، ثم يواجه الخطب بجذ جديد، وحدّ حديد، وبأس شديد، ورجال يموجون في بحار من حديد. فأذن له وصرفه، وأمر له من الخلع الفاخرة، والأحذية الباهرة، بما ضاهى جلاله قدره، وأكد الثقة بصادق وعده.

ورجع كل منهما إلى مكانه، وأقبل على استصلاح شأنه، ومحادثة سيفه وسنانه. وورد على أبي علي من ذلك ما أبهم عليه وجه التدبير، وسدّ عليه باب التقديم والتأخير. وجعل الرأي شورى بين أصحابه، فيما كثر له الأمر عن نابه. فكانت زبدة مخضهم مكاتبة فخر الدولة، ومعاقده وموآدته ومعاهدته، وتأثيل حال في جانبه، ترجي يوم العثار، ونائبات الليل والنهار. فأرسل إليه أبا جعفر بن ذي القرنين بما أعرض من تحف خراسان، وأفرد صاحب بمثل ذلك، طمعا في حصول الغرض المقصود، من الإنجاد على يده، وبحسن سفارته ووساطته.

وحدثني أبو جعفر أنه دخل على صاحب فعرض عليه ما كان صحبه، ثم قال له مخاطبا عن صاحبه: مثلنا في حمل هذا التافه الطفيف إلى صاحب الجليل مثل من يستبضع التمر إلى هجر. فقال صاحب: قد ينقل التمر من مدينة الرسول إلى هجر لا للحاجة إليه، ولكن للتبرك به.

وسعى صاحب في تمهيد الحال، وتوكيد أسباب الوصال، حتى تمت الألفة، واشتبيكت العصمة، ودرت المكاتبة، واستحكمت الصداقة.

وقد كان مأمون بن محمد صاحب الجرجانية، وأبو عبد الله خوارزمشاه، قد أحسنا التقرب إلى الرضا أيام انحيازه إلى أمل بما ساعدهما الوقت عليه من مال ورجال. فعرف ذلك لهما، وأحب أن يجزيهما عما خدماه به، وقدماه من قدم الطاعة له، فجعل نسا برسم مأمون بن محمد، وأبيورد برسم خوارزمشاه، وعقد لكل منهما على عمله عقدا. فأنهض كلّ واحد منهما من يقوم بضبط عمله، وتدبير ما أصفي له. فأفرج أبو

علي لمأمون بن محمد عن نسا بحكم حال في المودة بينهما قديمة، وأسباب في الاتحاد أكيدة. ودفع أبا عبد الله خوارزمشاه عن أبيورد اعتلالا بأنها ولاية أخيه أبي إبراهيم، وأنه لا يسعه النزول عنها إلا بعوض له منها. وأمر بطرد أصحابه عنها، وشلهم دونها. فأسر ذلك خوارزمشاه في نفسه، إلى أن تمكن من الفرصة في أمره، فاستشفى منه على ما سنشرحه عند الانتهاء إلى ذكره.

وطلعت خلال ذلك رايات الأمير سبكتكين من غزنة على ما كان سبق من وعده، وقد جمع واحتشد، واستمد واستنجد، وقام في الاحتياط والاستظهار، وقعد وساق أمامه الفيول التي ملكها على ملوك الهند في غزواته ومقاماته. وعبر الرضا إلى الجوزجان، والتقى مع الأمير أبي الحارث الفريغوني واليها، وأقام إلى أن وصل إليه الأمير سبكتكين، ولحق به الشار ومن جرى مجراه من زعماء البلاد، في طبقات الأجناد، فاجتمع أجناد شرقت بهم الممالك والمذاهب، وأجذبت عليهم المراتع والمشارب. فنهض أبو علي وفائق من نيسابور إلى هراة وبها إيلمنكو غلامه وصاحب جيشه، فخيّم بها مدافعا عنها، ومراميا دونها. وضوى إليه من كان مقيما من جهته بمرور الروذ وباذغيس وغيرهما أخذا بالحيطة واحتراسا من الغرة.

وسار الرضا مع الأمير سبكتكين حتى أناخ بناحية بغ، وأرسل عند ذلك أبو علي إلى الأمير سبكتكين يذكره الحال التي كانت بينه وبين أبيه من الموات المهيدة، والحرمان الوكيدة، وما استمر عليه بعده من سيرته في الاتحاد والوداد، والاشتراك والاشتباك. ويسأله أن يتوسط بينه وبين الرضا على ما يجلو حزاة قلبه، ويطفىء حرارة غيظه، ويسترد شارد أناته، ويمسح جانب مرضاته، محتكما عليه بما يستصوبه في حسم الداء، وحقن الدماء، وتسكين الدهماء، وتأليف الأهواء. فأحسن الأمير سبكتكين الإصغاء إلى ما سأل، وشد النطاق لما التمس، ومال جهده إلى الاستصلاح، ووضع السلاح، على عادته من كراهة الفتن، وإماتة الأحقاد والإحن، وسأل الرضا في مجالس عدة شفاها ورسالة أن يأخذ بأدب الله تعالى في العفو والغفران، وإقالة العثرة بفضل البر والإحسان، إيثارا للذي هو أقرب للتقوى، وأحمد في البدء والعقبى. ولم يزل به على اتصال نفرتة، واشتعال جمرته، حتى سمح بالإجابة، وأسجح بالعفو والإقالة، على أن

يفتدي من أرش عصيانه بخمسة عشر ألف ألف درهم يؤديها في ثلاثة أنجم على رسم الموافقات.

وكتب الأمير سبكتكين يذكر ما استتم من الصلح على يده، وانتظم من عقد الصلاح بسعيه وكده. وتشاور أصحاب أبي علي ووجوه قواده، في اقتسام هذا المال بينهم معونة له على ما لزمه من الغرامة، واغتناما لما يربحون عليه من السلامة، فصادف ذلك صدة من شبّانهم، ونزقا من أحداثهم، وذهابا منهم بأنفسهم عن الإذعان للمكافّة، والرضا بالصلح الجامع لمصلحة الكافة.

وسار من ذؤبان الأكراد وسرعان الصعاليك طائفة إلى معسكر الأمير سبكتكين، فاختلسوا منه غلاما له كان يلي أمر فيلته، فقتلوه في عدة ممن أصابوا غزتهم. وانضاف إلى ذلك أن رسول الأمير سبكتكين لما كرّ وراءه بجواب ما تحمله، وافق أبا الفضل الزيادي أحد أنياب أبي علي موكلا ببعض تلك الشايات والمخارم فقال له: هيهات إن سعيك لفي ضلال، وإن صاحبك لا ينطق إلا في محال، ما نحن بأحلاس الصلح وأبنائه ما دامت هذه العيون حافظة سوادها، والعواتق حاملة نجادها، يعني به قول القائل^(١):
[الطويل]

كذبتم وبيت الله لا تأخذونها مراغمة ما دام للسيف قائم

فلما نمت هذه الأخبار إلى الأمير سبكتكين استشاط غضبا، وقضى من إدبار القوم عجبا. وعزم على المناجزة، واستخار الله تعالى في صدق المجاهدة والمجادلة، وأرسل إلى أبي علي أن خذ في إرهاف سيفك وسنانك، فقد جئتكم بما لا يغنيك منه غير حد الحسام، وثبات المقام.

وزحف إلى الفضاء الرحب بفرونة يوم الأربعاء للنصف من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلثمائة فرتب الخيول مقانِب ومناسر، وعبى الجيوش ميامن ومياسر، وشحن الصفوف بفيلته المجففة كأنها شواهِق أعلام، أو طوارق غمام.

(١) البيت من قصيدة لعمر بن براقة الهمداني، أوردها القالي في "أماله" ومحمد بن المبارك في "منتهى الطلب من أشعار العرب" والأعلم في "حماسه". انظر: شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ٤٠٣/١.

ووقف الرضا به وبالأمر محمود ولده في القلب مشحونا بكماة الرجال، ومحفوظا بكفاة الأبطال^(١): [البسيط]

من كل أروع ترتاع المنون له إذا تجرد لا نكس ولا جحد
يكاد حين يلاقي القرن من حني قبل السنان على حوائه يرد

وسار فخلت الأرض سائرة، والجبال هائرة، والنجوم منكدره، والسماء منفطرة.
وثار من وقع السنايك نفع أوهم كسوف النهار الشامس، أو عود ظلام الليل الدامس.

وقد كان أبو علي رتب جيوشه أسوة الأمير سبكتكين، فجعل فائقا في الميمنة، وأخاه أبا القاسم بن سيمجور وإيلمنكو في الميسرة، وثبت في القلب مع حماته وذوي الوفاء والحفيظة من ثقاته، فكانوا على الحقيقة جيش الطواويس من وميض الحديد، ولمعان الحمر والبيض. وأشرقت عليهم الشمس فبرقت لها الأحداق، وتلاأت الآفاق، حتى إذا تدانت الخطى بين الفريقين بدأت الفائقية بالحملة على ميسرة الرضا، فبددوا نظامهم، وزعزعوا عن المقام أقدامهم، وثنى أبو القاسم بن سيمجور بمثلها على من

(١) البيتين لأبي تمام انظر: ديوانه ٣٢٠/١.

أبو تمام: (١٨٨ - ٢٣١ هـ / ٨٠٣ - ٨٤٥ م): وهو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي. أحد أمراء البيان، ولد بجاسم (من قرى حوران بسورية) ورحل إلى مصر واستقدمه المعتصم إلى بغداد فأجازه وقدمه على شعراء وقته فأقام في العراق ثم ولي بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفي بها.

كان أسمر، طويلاً، فصيحاً، حلو الكلام، فيه تمتمة يسيرة، يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع.

في شعره قوة وجزالة، واختلف في التفضيل بينه وبين المتنبي والبحتري، له تصانيف، منها فحول الشعراء، وديوان الحماسة، ومختار أشعار القبائل، ونقائض جرير والأخطل، نُسب إليه ولعله للأصمعي كما يرى الميمني.

وذهب مرجليوث في دائرة المعارف إلى أن والد أبي تمام كان نصرانياً يسمى ثادوس، أو ثيودوس، واستبدل الابن هذا الاسم فجعله أوساً بعد اعتناقه الإسلام ووصل نسبه بقبيلة طيء وكان أبوه خميراً في دمشق وعمل هو حائكاً فيها ثم انتقل إلى حمص وبدأ بها حياته الشعرية.

وفي أخبار أبي تمام للصولي: أنه كان أجش الصوت يصطحب راوية له حسن الصوت فينشد شعره بين يدي الخلفاء والأمراء.

قابله فصنع صنع الآخرين. وحمل دارا بن شمس المعالي قابوس بن وشمكير من قلب أبي علي، فظنوه يسعى لشرف المقام، ورعاية حق الدّمام والإنعام، حتى إذا بلغ بين الصّفين وقى ظهره بترسه، وأقبل على موقف الأمير الرضا بوجهه، فاستأمن إليه، ووقف للقتال بين يديه. فانخذل أصحاب أبي علي لما أخفره من الذمة، وقطعه من العصمة إشفاقاً من مواطاة أضرابه إياه على مثل صنيعه. وعندها حمل الأمير محمود على قلب أبي علي في سواد فدح بثقله كاهل الأرض، وسدّ بقسطله مناكب الأفق. فلم يلبث أحد من أصحاب أبي علي لكفاح، أو مدافعة بسلاح، بل انفصّوا عن موقفهم انفصاض العقد خانه النظام، وانسلّ منه الفرد والتّوام، وجعلوها هزيمة انتكست بها الأعلام، وغصّت بجموعهم الأباطح والآجام. وركب الأمير محمود أكتافهم بضربات تفلق هاماتهم أنصافاً، وتسقي النفوس سما زعافاً، فلم يفته إلا سرعان تلك الجموع، ومن خفف عن ظهره ثقل الجواشن والدروع. وغنم أهل العسكر أموالاً لو افتدي ببعضها على الصلح المعقود لبقيت الوجوه بمائها، ووضعت الحرب تلك الأوزار عن أبنائها.

وسار أبو علي بالفل من أشياعه إلى نيسابور، فأقبل بها على جبر الكسير، وریش الحسير، استعداداً للانحياز عنها قبل رهق اللحاق، ومؤتف التلاق.

وحيم الرضا والأميران سبكتكين ومحمود بظاهر هراة ريثما استجمت ركائبهم، وتوفرت على الأولياء رغائبهم. ولقب الأمير الرضا الأمير سبكتكين بناصر الدولة، ووارث ملكه السلطان محمود بسيف الدولة، وقلّده قيادة الجيوش ساداً مكان أبي علي به. وسار إلى نيسابور في هيئة أشعرت النفوس مهابة، وملأت قلوب الأعادي كآبة، ورجال كالقروم المصاعب، وأفيال كالآساد الغوالب، مخطومة بالأساود. وفي ذلك يقول أبو الفتح البُستيّ^(١): [الوافر]

بسيف الدولة اتسقت أمور رأيناها مبددة النظام

سما وحمى بني سام وحام فليس كمثله سام وحام

وسنجري ذكره آنفاً بسيف الدولة إلى أن أفاء الله الملك منه إلى مظنة الاستحقاق، وشهره بلقب اليمين في كور الآفاق.

(١) انظر: زهر الآداب وثمر الألباب (١ / ٢٠٦) ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١)

ثم ارتحلوا على وجه نيسابور. ولما تسامع أبو علي بنبيهم، فارقه منحدرًا إلى جرجان على الوثيقة التي كان أخذها على فخر الدولة، في بذل المشاركة، وصدق المساهمة حتى ألم بها، وكتب إليه بالحالة التي ألجأته إلى قصد ولايته، والانقطاع إلى جانب مملكته. وأرسل أبا نصر الحاجب إليه في تقرير حاله، واستدعاء معونته بذاته وماله. واستتاب صاحب في تنجز ما كان يعده لنفسه على الأيام من بركة وصاله، ويعده لها من ثمرة وداده، فأمر بمال يقام مياومة لوكيله، وبألقي ألف درهم من ارتفاعات جرجان لأهل عسكره. وأقام هو وفائق حتى انحسر عن غرة الربيع قناع الشتاء، وانكشف عن الزمهرير آفاق السماء.

وقد كان الرضا انحرف عند انحدار الأميرين سبكتكين وسيف الدولة إلى نيسابور بعبد الله بن عزيز إلى طوس التحافا عليه مما صورّه له من إرصادهما إياه بالمكروه، على ما دعتة النصيحة إليه من مناقشتها في بعض الأموال والأعمال، فنهض الأمير سيف الدولة محمود على أثره إظهارا للبراءة، واستشعارا للطاعة، واستتماما للخدمة، وإزاحة لعارض الظنة. وطار عبد الله بقوادم العقاب تحت خوافي الليل إلى مرو على عوادل الطرق إشفاقا على نفسه من عادية التضريب، فعل المتهم المريب.

وتلقى الرضا مورد سيف الدولة بآتم إقبال وإشبال، وصرفه وراءه على أحسن حال، وأنعم بال. ثم ارتحل بعقبه إلى مرو لا حقا بوزيره، ثم منها إلى بخارى حتى استقر بها على سريره.

وقد كان الأمير سبكتكين وسيف الدولة حين وصلا إلى نيسابور فرشا مهاد العدل، ورفعوا عماد الأمن، وتتبعوا رسوما كانت جانفة من قبل. فنسخاها ببث الرأفة، وحسم المخالفة، وارتياح مصلحة الكافة. فانشرحت الصدور، واستقامت الأمور، وأمنت الطرق، واتصلت القوافل والرفق.

ثم سنع للأمير ناصر الدولة سبكتكين أن ينقلب إلى هراة لمطالعة ما كان برسمه، فسار وأقام سيف الدولة بنيسابور على قيادة الجيوش وزعامة الجمهور.

وقد كان أبو علي طمح إلى زيادة من المال تحمل إليه معونة له على إقامات الحشم من أهل عسكره من الري، فكتب إليه أبو نصر الحاجب بأي قد عرضت الكتاب وقررت المراد. فكان من جواب فخر الدولة: إن مثل الملوك مثل الأنهار العظام

تصطفق مياهها، وتزخر شعابها، فيرى الناس ملتقى عبابها، ومصطفق أمواجها، ويغفلون عن عدد الجداول التي تغترف منها، والسواقي التي تتشعب عنها. ولو أننا قدرنا على مؤن خراسان لا ستضفناها إلى ما نليه من سرّة الأرض وواسطة الأقاليم، لكننا قد سمحنا بما تيسر، والعذر ظاهر فيما تعذر.

فاستوحش أبو علي من جوابه، واستشار فائقا ووجوه قواده في تدبير الأمر بصوابه، وإتيانه من بابه. فاختلفت آراؤهم بحسب اجتهادهم في المشورة، ورؤيتهم في استشفاف العواقب المستورة، فأشار بعضهم بلزوم جرجان واستخلاصها، وإقامة الخطبة للرضا بها، والكتاب إليه بالطاعة، وضمان الإتاوة، إذ كانت تلك ولاية قد أعييت صيد الملوك وصناديد القروم على خطبتهم لها بيهم العساكر، وطلابهم إياها بسمير الرماح وبيض البواتر، وأذلتهم عليها مصونات الرغائب، وتغريهم فيها بكريمات النفوس والحرائب.

وقد حصلت له عفوا صفوا، وانفتحت عليه سهوا رهوا، وبيع العين بالضمارة محال، وإفاته النقد بالشئء النسيء ضلال.

وأشار فائق بمناهدة الأمير سيف الدولة، ومناهضته لاعتراض الفرصة عليه بتفرق الجموع عنه، وإخلال أبيه به، ولمخالفة هواء جرجان طباع عسكرهم، ونكايته فيهم، قدر ما يتنكر لهم الفصل، ويحتدم عليهم الحر. فوافق هذا الرأي جمهور العسكر لحرصهم على الوطن، ونزاعهم إلى الأهل والسكن، فاتفقوا على هذا الرأي، وتطابقوا على الانكفاء.

واضطروا أبا علي إلى مساعدتهم، واتباع إرادتهم. وعند ذلك ورد الخبر بمضي صاحب إسماعيل بن عباد لسبيله، وكان معنيا بمصالح أبي علي وتحسين آثاره، والإشارة على فخر الدولة باغتنام جواره، ومعاونته على ثأره. فكّر إلى أبي علي نعيه فضل المقام، وأغراه بتعجيل الانتقال.

ولما استأثر الله بالصاحب أكثر شعراء العصر في مراثيه فمنها قول أبي محمد الخازن الأصفهاني^(١):

يا كافي الملك ما وفيت حقك من مدح وإن طال تمجيد وتأبين

(١) هو أبو محمد عبد الله بن أحمد الخازن الأصبهاني انظر: قرى الضيف ٣/٣٢٩.

فت الصفات فما يرثيك من أحد
هذي نواعي العلى مذمت نادبة
تبكي عليك العطايا والصلات كما
قام السعاة وكان الخوف أقعدهم
لا يعجب الناس منهم إن هم انتشروا
إلا وتزينه إياك تهجين
من بعد ما ندبتك الخرّد العين
تبكي عليك الرعايا والسلاطين
واستيقظوا بعد ما نام الملاعين
مضى سليمان فأنحل الشياطين

ومنها قول أبي سعيد الرستمي الأصفهاني^(١): [الطويل]
أبعد ابن عباد يهش إلى العلى
أبى الله إلا أن يموتا بموته
ومنها قول أبي عيسى المنجم^(٢):
والله والله ما أفلحتم أبدا
إن كان منكم وزير فاقطعوا وزري
بعد الوزير ابن عباد بن عباس
أو كان منكم رئيس فاقطعوا رأسي
فمالهما حتى المعاد معاد

ومنها قول أبي العباس الضبي وقد اجتاز ببابه بعد موته:
أيها الباب لم علاك اكتئاب
قل بلا رهبة وغير احتشام
مات من كان يفرع الدهر منه
ومنها قول أبي الفتح البستي الكاتب:
مضى صاحب الدنيا فلم يبق بعده
فقدناه لما تم واعتم بالعلى
ومنها قول أبي منصور الثعالبي:
ألا يا صاحب الدنيا
أما استحيا أبو يحيى
لئن ختمت بك الدنيا
وعين السؤدد اليمنى
لقبض العالم الكبرى
فقد فتحت بك الأخرى

(١) انظر: يتيمة الدهر ٣٣٠/٣

(٢) هو أحمد بن علي بن هارون بن علي ابن يحيى بن أبي منصور المنجم (أبو عيسى) له البيان عن تاريخ سني زمان العالم على سبيل المحبة والبرهان.

انظر ترجمته في الفهرست ١/ ١٤٤، ومعجم الادباء ٣/ ٢٤٤، وكشف الظنون ٢٦٤.

ورحل أبو علي من جرجان على سمت جوين غرة شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وثلثمائة. وتقدمه فائق على طريق إسفرايين حتى إذا قارب حدود نيسابور، عدل إليه، واختلط به وسار مسير المستعدين للحرب، المجدين في الطعن والضرب.

وبلغ سيف الدولة خبرهما، فكتب إلى الأمير سبكتكين بإقبالهما. وبرز إلى ظاهر البلد، في خف من العدد، وخيم به على انتظار المدد، فأعجلاه عن المراد، وناوشاه الحرب قبل وصول الأمداد. فأضرهم عليهما نارها، وبأشر بنفسه وخاصته أوارها، من حيث ترجل راد الضحى إلى أن ألقت ذكاء يمينها في كافر، فتعصفت أرض الوغى بدماء القتلى، وأضجعت مناسم الفيول رجلا كانوا أركانا للصفوف، عند اشتجار الزحوف، واختلاط الأسنة والسيوف، وهم أصحاب أبي علي، بالانخزال جبنا عن النزال، ثم تداعوا مناص، طلبا للخلاص، فكانت حملة وافقها القدر.

وانحاز سيف الدولة بمعظم جيشه إلى مناخ أبيه الأمير سبكتكين في أمان من لباس الظلام، إرسادا للخصوم بيوم الكرور على الثأر، وإسلامهم لقدر الأقدار.

وتخلف عنه ما أعياه استصحابه من أثقال، وفيلة ثقال. وعجز عن خدمة ركابه طائفة من رجال الهنود، وسائر أفناء الجنود، فذكت عند ذلك شعلة لأبي علي أطمعت في استقلاله، وعوده إلى المعهود من حاله، لكن الله تعالى قضاه سببا لا حتناكه واستئصاله.

وأشير عليه عند إمامه بنيسابور أن يتبع أثر الأميرين ناصر الدين، وسيف الدولة، معجلا لهما عن عدة الارتياش والانتعاش، وقوة الاستنجاد والاستمداد، فاتّزر بها فعل من كلّت بصيرته، وانحلت مريرته، وعمي عليه قصده، ونعي إليه جده. وأخذ يعتل بصفورة يده، وخلو خزائنه، وإشفاقه من خذلان عسكره إياه إن دعاهم إلى البراح، وسامهم خطة الكفاح. وأخذ يكتب إلى بخارى معذرا عن جنائته، ومتنسلا من بادرته، ومستقيلا عارض عثرته، ومستميحا قبول عذرتة. وأرسل إلى الأمير سبكتكين رسالة الواهي جلده، المتناهي كمد، المتخاذل لسانه ويده، يحيل بالكشفة التي استمرت بالأمر سيف الدولة على فائق وسائر أهل عسكره، لإكراههم إياه على مفارقة جرجان، ومعاودة خراسان، وأنه لو وجد إلى مراده سبيلا، أو في ذرى اختياره وهواه مقيلا، لما التفّت إلى خراسان ما عاش، تفاديا عن وحشته، وتحرزا عن كراهته، ويسأله أن يهب له

ثأره، ويستوهب الرضا خطأ وعثاره، فلم تزده رسالته على التطميع في اغتياله، والتنبيه على انخذه، والتضرية على اقتناصه، والإيمان من فوته وخلاصه.

وبث الأمير سبكتكين كتبه إلى من تفرق عنه في ديار مملكته، وأطراف ولايته من قواده وأجناده في استنهاضهم إلى مخيمه، واستعجالهم إلى مضربه.

وأنهض الوزير أبا نصر بن أبي زيد إلى الأمير خلف بن أحمد والي سجستان يجشمه اللحاق به. وكتب إلى والي الجوزجان أبي الحارث الفريغوني بمثله، فطالع حضرة الرضا باستعداده وانتظار ما يرد عليه من مثاله. وكتب إلى القواد بنواحي خراسان بالبدار إليه. وتتابع الأمداد إليه من كل جانب عليه، فصار الأمير سبكتكين في جيوش لو راموا الجوّ لا ستنزلوا طيارته، أو وردوا البحر لأبدوا قرارته. وسار للانتقام مسير الليل غابت كواكبه، والسيل ضاقت به مذهبته.

وقد كان فائق عدل إلى طوس يكاتب الأمير سبكتكين مدهانا، ويطمعه في الانحياز إليه مهادنا، فتلقى وجهه بمثاله، وكال عليه مثل مكياه. وتكفأ أميرك الطوسي - أحد الأمراء التاروذية - لأبي علي بين الطاعة والمناعة، والموافقة والمنافقة، يقدم رجلا للورود، ويؤخر أخرى للقعود، فأرسل أبو علي أبا القاسم الفقيه إليهما للاستماله، وتحذيرهما قدم الضلالة، فنهض إليهما وأخذ له الميثاق عليهما، وكتب إليه يستعجله اللحاق بهما، فسار أبو علي، وتلقاه فائق وأميرك بناحية الطابران، فانفقت كلمتهم على التظاهر والتضافر. وخلصت نياتهم في التساعد والترافد، واختاروا معسكرا بقرب أندرخ فخيّموا به.

وقد كان أبو القاسم - أخو أبي علي - قد عتب عليه لعدوله بولاية هراة، وثمرات أعمالها عنه إلى إيلمنكو غلامه، وتقصيره به فيما كان يخطبه ويقترحه عليه من أمثالها، على وفائه له، وولائه إياه، والتزامه حكم المشاركة له في كل ما نابه وعراه، فتقاعس عنه عند نهضته من نيسابور اعتلالا عليه ببقية من أشغاله، حتى إذا تنفست مدة ارتحاله آيسه من وصوله ووصاله، أحوج ما كان يدعوه إلى عونه ونضاله، فزاد ذلك في انخذه، وكسوف باله.

وحث الأمير سبكتكين تلك الخيول في قصد أبي علي حتى أناخ بطوس مقابلا لعسكره، وذلك لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين وثلثمائة، فثار فتیان

الخيول، وشبان الجنود، إلى التطارد والتجالد، فبقوا على ذلك سحابة يومهم. فلما قبض الليل مسافة أبصارهم، عادوا إلى مضاربهم.

وشاور أبو علي وجوه قواده في معاودة الحرب، فأشار عليه أميرك الطوسي، وذوو الحصافة منهم بتلجي شعب الجبل، والاستظهار على الأمير سبكتكين بمناعة أرجائه، وغزارة مائه، وسعة العلوفة من ورائه، وممادته الحرب على إغراء الرجال الطوسية بأطراف عسكره مبيتين وخاريين، ومغيرين وعائثين، إلى أن يدركه الملل، ويلحقه الفشل، ويتفرق عنه الحشر، فعندها يناجزونه على بصيرة، وقوة مريرة، واستمache خيرة. فشغب من سمع بهذا الرأي من أحداث العسكر، وقالوا: مالنا نطاول القوم، وندافع الوقت؟ لا يعرف الناس أننا نميل عن المصاولة إلى المطاولة، وعن المساورة إلى المصابرة؟! فما نحن نساقيهم المنية، ونصبحهم منها كأسا روية، فانتفض عليهم التدبير، وصار المأمور هو الأمير، ووثب كلا العسكرين عند انفلاق الصبح إلى الاستعداد للقاء، والاحتشاد لحدة الهيجاء، وأقبلوا على تسوية الصفوف، مشحونة بالألوف، كآجام الليوث من ذبل القنا والسيوف. وحصن الأمير سبكتكين مواقف عسكره بنخب فيلته، فحككت تحت التجافيف أطوادا فارعة، وأمواجا متدافعة.

ودنا الفريقان بعضهم من بعض، فلم يرع ميسرة أبي علي إلا رهج ثار عليهم من وراء قرية قرضتهم ذات اليمين، فإذا هم بالأمير سيف الدولة في الطمّ والزّم، والليل المدلهم، فتزلزلت أقدامهم، وضلت أحلامهم وأفهامهم، ورأوا أن قلب أبي علي قد حمل على قلب الأمير سبكتكين، فساعدوهم على حملتهم تفاديا عن إيقاع الأمير سيف الدولة بهم فمزقوا مصفه، ونفضوا عن الزحام موقفه، فوقف لهم الأمير سبكتكين فيمن احتف به، والتف عليه من خواص غلمانته، وردّ حملتهم في وجوهم، فارتدوا على أدبارهم. وقد أطل سيف الدولة عليهم من ورائهم، فبقوا محصورين بين العسكرين، وأخذتهم السيوف من كلا الجانبين. وثار قتام خلط البعض بالبعض، فلم يسمع غير وقع البيض على بيض المفارق، وحطم الدبابيس ما بين الطلى والعواتق.

وظلت خراطيم الفيول تسلب الفرسان عن صهوات الخيول، وتلحق القاتل بالمقتول.

وبلغ سيف الدولة من الإيقاع بهم، والإيجاع فيهم، والانتقام منهم، وصب السيوف عليهم مبلغا لو سمع به رستم في زمانه، لزهته خدمة عنانه، وهذبتة آداب سيفه وسنانه. وفات بعض المحصورين ببقايا المهج تحت غواشي الرهج، وبرذايا الأرواح من بين مشتجر الرماح، فانجلت المعركة عن قتلى مضرجين في الدماء، وجرحى مطرحين على العراء، وأسرى آيسين من الفداء. وركب سيف الدولة أكتاف الفلّ، فأسر منهم من قصر عن اقتحام شعاب الجبل، وعمي عليه وجوه تلك المغارات والمدخل. وكان من جملة المأسورين أبو علي بن بغرا الحاجب، وبكتكين الفرغاني، وأرسلان بك وأبو علي بن نوشتكين، وأماسار بن سجان روز الجيلي، ولشكرستان بن أبي جعفر الديلمي، وهؤلاء أعيان عسكر أبي علي، ورتوت قواده، ووجوه أركانه وأعضاده. وسار أبو علي وفائق بين مهاوي تلك الجبال، ومساعد تلك القلال إلى أن أناخا بقلعة كلات وهي التي تحفي الرياح بين نعافها، وتزل الأبصار دون روايها وشعافها، فأضافهما بها أميرك الطوسي إلى أن ظهر لهما عدد من سبق ومن لحق، وجملة من اجتمع ممن تفرق. وكان أبو علي قد سرب الفيلة التي قبض عليها بباب نيسابور إلى كلات في جملة ضبنته.

وكتب أبو علي بن بغرا الحاجب وسائر الأسرى يذكرون له أن الأمير سبكتكين استدعاهم ومناهم، ووصلهم وحباهم، ووعدهم الإفراج عنهم متى ردت تلك الفيلة إلى مرابط أمثالها من مناخه، وسألوه أن يفعل ذلك تنفيسا عنهم، وتخليصا لهم. فتقدم أبو علي إلى أميرك بردها، والإفراج عنها. ونهض هو وفائق على سمت أبيورد مصحرين عن تلك المضائق. فبعث أميرك تلك الفيول إلى الأمير سبكتكين، وكتب إليه يريه أنه المتقرب بردها، المتفرد بالخدمة فيها، فاستعمر بذلك رتبته، وأحبط على أبي علي قربه. وفي ذكر هذه الواقعة يقول أبو الفتح البستي الكاتب^(١): [الوافر]

ألم تر ما أتاه أبو علي	وكننت أراه ذا لبّ وكيس
عصى السلطان فابتدرت إليه	رجال يقلعون أبا قبيس
وصير طوس معقله فأضحى	عليه طوس أشأم من طويس

وسار أبو علي وفائق إلى سواد أبيورد على أن يقصدا كورة نسا، فسنح لفائق أن يعدل إلى سرخس لرأي رآه، فخذل أبا علي على على المكان، وسار بمن معه من الغلمان. فلما سمع أبو علي بنبئه، أرسل إليه بأني غير مفارقك على أية حال تصرفت بنا من إجداب وإخصاب، وإحزان وإسهال، وأن ركوب هذا الطريق كان على ما سنح لنا بادي الرأي من الصواب. وإذ قد بدا لك في التدبير فإني تابع رأيك، وها أنا من ورائك، فوقف له إلى أن لحق به، وسار إلى سرخس، ومنها إلى مرو.

وحين تسامع الأمير سبكتكين بخبر عدولهما عن سمت أبيورد، نهض على أثرهما، واستخلف الأمير سيف الدولة على ما فوّض إليه من أعمال نيسابور، ضامنا عنه كفاية أمرهما، فقضيا أو طارهما بمرو، ثم اخترقا مفازة أمل الشط محتجزين بجذوبة المفازة، وصعوبة المسافة، وانسداد المسالك، وانسدام المناهل. وألقيا بها عصا القرار.

وأرسل أبو علي أبا الحسين محمد بن كثير، وفائق عبد الرحمن بن أحمد الفقيه وزيريهما إلى بخارى في استعتاب الرضا واسترضائه، واستفائته إلى رعاية حقوق مواليه وأوليائه. فأما أبو الحسين بن كثير فإنه صرف وراءه على وجه جميل، فكتب إلى أبي علي في تمنية وتأميل، ورسم له أن ينحرف إلى الجرجانية فيقيم بها إلى أن يستأنف تدبير أمره بواجبه. وأما عبد الرحمن بن أحمد فإنه أمر باعتقاله، ووضع في الحبس على رسم أمثاله، وندب من بخارى بعض المسوّد بكتاب إلى مأمون بن محمد والي الجرجانية ليتقدمه بتقرير حاله، وذكر ما أنشئ من الرأي في بابه. فامتعض فائق بما قوبل به رسوله، وعمد أن يعبر النهر إلى ما وراءه ملتجئاً إلى أيلك خان، ومستصرخاً إياه، ومستعينا به على ما دهاه. وأشار على أبي علي بأن يساعده، ويجمع إليه يده وساعده، فإن الغرض المقصود في طرحه إلى الجرجانية تفريق ذات بينهما في المساعدة والمرافدة، والاجتماع على الحادثات باليد الواحدة، وأن الذي غمسا فيه أيديهما من الخلاف على تلك الدولة - اضطرابا كان أو اختيارا - لا يوجب الإغضاء عن تبعاته، والذهول عن نفثات أنيابه وحماته. فاختر أبو علي مبادئه على مساعدته، ومجانبته على مقاربتة، سرا لله تعالى فيما حكم به من صدع شمله، وقطع حبله، ووضع رحله:

وليس لرحل حطه الله رافع وليس لأمر شاء الله دافع

وافترقا عن مناخهما. فأما فائق، فعبر النهر إلى ما وراءه عادلا إلى أيلك مستجيرا إياه، وواصل عروته بعراه، فأنهض من بخارى على أثره بكتوزون الحاجب، فتصادما بحدود نسف، وولى كلّ منهما صاحبه ظهره، بعد أن أبلى في اللقاء عذره. فقبله أيلك أحسن قبول، وقراه أحسن مقول ومفعول، وضمن له الوفاء بأمله، وردّه إلى ما استنزل عنه من عمله.

وأما أبو علي، فأخطأ الطريق، وحرّم التوفيق، فصار مثقلا بما اجترحه من العصيان، خجلا لما فاتته من فرصة البرّ والإحسان، قد كحلت يد القدر، بمرود الحيرة والسدر، وعمت عليه غياهب القضاء مذاهب الفضاء، فهو يخطب خطب عشواء، مستبسلا للمقدور، مستسلما لطوارق المحذور. أنشدني أبو حاتم الحنفي المذكر في مثل حاله لبعضهم:

إذا أراد الله أمرا بامرئ وكان ذا رأي وعقل وبصر
وحيلة يعملها في كل ما يأتي به مكروه أسباب القدر
أغراه بالجهل وأعمى عينه وسلّه من عقله سل الشعر
حتى إذا أنفذ فيه حكمه ردّ عليه عقله ليعتبر

نعم، ومر أبو علي قدما على سمت الجرجانية إلى أن بلغ المسير به هزار اسف، وهي بلد يقابل بلد خوارزم من الجانب الغربي، فأرسل إليه خوارزمشاه من أقام له نزلا، وقدم إليه عذرا، ووعد العبور إليه غدا لمشاهدته، وقضاء حق وفادته. وقد كمن له زهاء ألفي رجل من أفناء عسكره في خمر الغياض والآجام لاغتياله جنح الظلام.

وقد حكى لي أبو علي الخشنامي أحد ثقات أبي علي، وقد كان قد نهض رسولا من جهته إلى أبي عبد الله خوارزمشاه أنه أنشده أبياتا لابن المعتز، ورسم له تبليغها أبا

علي على معنى النصيحة^(١): [المتقارب]
إذا فُرْصَةٌ أَمْكَنْتْ فِي الْعَدُوِّ وَفَلَا تُبْدِ شَغْلَكَ إِلَّا بِهَا
فَإِنْ لَمْ تَلْجُ بِأَبْهَامُ مُسْرِعَا أَتَاكَ عَدُوُّكَ مِنْ بَابِهَا
وَأَيَّاكَ مِنْ نَدَمٍ بَعْدَهَا وَتَأْمِيلِ أَخْرَى وَأَنْتَى بِهَا

قال: فرويتها له، وذلك قبل استيحاء أبي عبد الله منه، فقبلها منه بمئة. ثم ذهل عنها كأن لم يقرعها قط سمعه، ولم يستودعها يوما من الدهر ذرعه. ولم يعلم أنها كانت رمزا من الأيام له بارتقاب النوائب، واتقاء العواقب. ولم يدر أن للأفعال والأعمال جزاء يحيق بأربابها وحيا أو بطيئا، محسنا أو سيئا.

وغفل ليلته تلك من الاحتراس، واقتدى بغفلته سائر الناس، حتى إذا أثقل العيون كراها، ونفّ النجوم سراها، ضجت الآفاق بخفق الطبول، وغططة الخيول. وأحيط بالقصر الذي نزله أبو علي على قتاله، أو نيل المراد من استنزاله، فثار من حفّ حوله من غلمانة للدفاع، وتأريث جمرات المصاع، وخفّ بنفسه إلى زعيم القوم يسأله ما خطبك؟ ولماذا حربك؟ فقال له: إن خوارزمشاه أمر بك فتقرب إليه برفق الإذعان، دون عنف الضراب والطعان، فهو للفتنة أطفى، وللإحنة أنفى، ولباع الانتقام أقصر، ثم أنت بالرأي أبصر. فبادر أبو علي إلى النزول، فاستردفه الزعيم حتى عبر به النهر نحو صاحبه، وذلك قبل الفجر من ليلة السبت غرة شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة، فأمر به إلى بعض القصور معتقلا فيه، وشدّ الطلب على أصحابه وقواده فأسر منهم الأعيان والأركان، وأفلت إيلمنكو صاحب جيشه بمن اتبعه نحو الجرجانية. ونودي في الأفراد وخدم القواد: من أقام يومه بهزاراسف أبيح دمه، ففرقوا أيدي سبأ في الأقطار، كشوارد الأمثال والأشعار، واعتقل الباقون على صغار وخسار إلى أن أذن الله في خلاصهم بوالي الجرجانية مأمون بن محمد وذلك إنه لما سمع نبأ أبي علي وما ارتكب منه خوارزمشاه اضطرب قلقا، واضطرم حنقا، وبات يرعى النجوم أرقا، إلى أن استتب له التدبير عليه، فرماه بعسكر جرار، يستخفون ماثقل الأعمال، ويخوضون مشاريع الأهوال، وينفذون رواسي الجبال، ويستنزلون العصم من شعف القلال. وسار فيهم إيلمنكو في خواص أبي علي، رجال قد أوغرتهم الحفاظ والإحن، وأخرجتهم النوائب والمحن، فهم يسعون إلى النار، لنفي العار ودرك الأوتار، فعبروا إلى كاث مدينة خوارزمشاه، وأحاطوا بها إحاطة الأطواق بالأعناق، وناوشوه الحرب، من كل أوب ودرب، فظلت تلفح وجوه رجاله بجمراتها حتى أجلتهم عنها مدحورين، وحصلتهم في ربقة الإسار مقهورين، ودمروا على خوارزمشاه في قرارة بيته، فأعطاهم بيديه. ووصل إلى أبي علي

فحمل ثقل قيده على كعبيه، وتبادلت حالاهما في رقعة من أديم النهار، فصار الأسير منهما أميراً، والأمير أسيراً، وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا.

وتحمل أبو علي نحو الجرجانية في أحسن شعار، وحمل أبو عبد الله على قتب عار، بين خزي وعار، فاستقبلهما مأمون بن محمد، فقابل أبا علي بالإعظام والإجلال، وعومل أبو عبد الله من ضروب الإذلال، بما يجلّ عن المقال. وانسلخ مأمون بن محمد عن مجهوده في إكبار أبي علي وإجلاله، ومشاطرته صنوف أمواله، وأقام العطايا لعامة رجاله، حتى انتظمت أحوالهم، وأخل بهم اختلالهم.

وقراه ذات يوم وكان قد اتخذ مجلساً كأنما عمل عليه صناع صنعاء تزينا وتحسيناً، وتنضيدا وتنجيذاً، فأحفى عليه في الشرب إحقاء لطف ومسألة، إذ كان قد هجر الشراب وودّعه منذ زمان، فلما أخذت الكؤوس مأخذها منهما اقترح إحضار خوارزمشاه، فأحضر وهو يحجل في قيده، ولم يزد في جواب ما سئل عنه وعير به على الإطراق، وسمر الأرض بالحداق.

وجملة أمره أنه أمر به فأذريت هامته عن منكبيه، فتدحرجت إلى الأرض شبيته البيضاء، كذلك يفعل الله ما يشاء.

وصفت خوارزم لمأمون بن محمد، فرتب بها من أقام الخطبة برسمه، وجبى أموالها على حكمه. وتابع كتبه إلى الرضا مستشفعا في أمر أبي علي، وسائلا تدبير أمره بما يؤنس وحشته، ويجبر خلّته. فخطوب هو وأبو علي بالملتمس، بمثل صحيفة الملتمس، رضا بما ينطوي على حقد دفين، وداء في الصدر دوي.

وأمر أبو علي بالمسير إلى خدمة السرير، فلاحث له أمانى قعد بها جدّه، وأصلد عليها زنده، فشخص نحو بخارى سائرا إلى دمه بقدمه، وقد أغفلت الأيام قلبه عن ذكر فعلاته وزلاته، ليلقى قدرا مقدورا، و﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

ولما شارف بخارى، استقبله الوزير عبد الله بن عزيز والقواد على طبقاتهم مهئين بها ومبرّكين. ومضى فيهم إلى السهلة، ونزل بها وأخذ يلثم الأرض إلى أن بلغ السّدة، ورفع له الحجاب، وسار أمامه الحجاب، إلى أن وصل إلى الرضا، فاستوفى أدب الخدمة، ولبس ذلّ كفران النعمة، واستنزل بعقبه إيلمنكو في كبار إخوته وقواده حتى إذا نودي بدابته للخروج من الدار، عدل بهم إلى بعض الحجر. وسلك هو والآخرون في

القيود والأصفاد، وأطلق على الوقوف بالباب أيدي الأولياء والحشم فطبقوهم بالسلب والنهب، وسلخوهم بين كل مضيق ودرب. وختمت حال أبي علي بيومه، و ذلك يوم تطامن فيه صوره، واستقام صعره، وأنضج له ثمره، وأعيا على ورده صدره. كذلك كفران النعمة لا يرضى إلا بسخط صاحبه، وإيساد الزمان عليه بأنياه ونوائبه، ورحم الله من قال فلقد أحسن المقال^(١):

إذا المرء لم يرض ما أمكنه ولم يأت من أمره أزينه
وأعجبه العجب فاعتاده وتاه به التيه فاستحسنه
فدعه فقد ساء تدبيره سيضحك يوما ويكي سنة

وقد كان الأمير سبكتكين منيخا بمرو، فلما بلغه إيقاع خوارزمشاه بأبي علي، عدل إلى بلخ فغني بها على جملته في الطاعة، وارتياح مصلحة الكافة، إلى أن ورد أبو علي بخارى، وأوعز في بابيه بما تقدم ذكره. وطلع أثناء ذلك كتاب الرضا عليه بما يهّم به أيلك من الانحدار عن الأعالي، وحياسة ما في أيدي عماله من أعمال تلك النواحي، ويسأله تجشم الخفوف في وجهه، والعبور لكفاية شغل أمره، متمما للصنيعة عنده في استحياء دولته، واستبقاء ملكه وحوزته. فاستشار في ذلك وجوه نصحائه ووزرائه، فترجحت الأجوبة بين تبعيد وتقريب، وتخطئة وتصويب. فأخذته العزة بالوفاء، وهزته الحفيظة للنداء، فعدل عن مشورة النصحاء إلى صريمة العزم والرأي، وأقبل على الاستعداد والاحتشاد، وبثّ كتبه إلى ولاية الأطراف وزعماء البلاد بتعجيل الورود، وتقديم الوفود. وعجل هو إلى العبور قبل تلاحق الجمهور، ومضى إلى ما بين كش ونسف، فخيم بقرية تدعى نيازي إلى أن وصل إليه ولاية الجوزجان والختل والصغانيان وسائر أطراف خراسان. وورد عليه الأمير سيف الدولة من نيسابور في هيئة راقية العيون، وهيبة راعت القلوب، ورجال قد ربتهم الحروب في حجورها، وأرضعتهم التجارب من شطورها، فلم يسمع بمعسكر بما وراء النهر جمع من كبار الملوك وأعيان القروم وطبقات الجنود ما جمعه ذلك المناخ.

وبلغ أيلك عبورهم للقاءه، فأرسل إلى الأمير سبكتكين عدة من شيوخ بابه، يذكر أنهما أخوان في ذات الله تعالى لا تفاههما على نصرة الإسلام، واقتسامهما ديار الترك والهند بالغزو والانتقام، وأنهما بحكم مساعيهم في إظهار دين الله وإفلاج حجة الله أحق بارتفاع خراسان وما وراء النهر من مستحلس بيته على مآرب نفسه، وشهوات بدنه، لا يشهد مقامًا محمودًا، ولا يشهر حسامًا مغمودًا، وأن اجتماعهما على حظيهما أعود عليهما من ركوب الخطر، واجتلاب الضرر، لحظ يخلص إلى غيرهما، وأنه لا يستحل في دينه أن يعدل بالسيف عن أعداء الله إلى وجهه، إلا إذا اضطره إليه ابتداء، وسامه الدفاع عن نفسه اعتداء، فليختر أيما الأمرين رآه لنفسه من وفاق وافتراق، وائتلاف واختلاف، فهو يسم بناره، ويحذو على غراره.

فرجع إليه أن اعتماد الرضا إياه بمنعه عن الجري على ما يهواه بتأمله حين خذله أبناء دولته، وكفره أنشاء نعمته، يذمم إليه الإغماض دون حيف يجري عليه، ومملك يراد انتزاعه من يديه، وأن تغريبه بجميع ما يحويه على استغراقه أيام العمر فيه، أحب إليه من سمة الخذلان، واختيار الإساءة على الإحسان. فليقطع طمعه عن الزّراع، حول تلك الرباع، أو فليأذن بحرب تتحطم فيها متون الصفاح، وتتقصّد معها عوالي الرماح، وترخص عندها غوالي المهجات والأرواح. فلما علم أيلك جده، وذاق بلسان الاختبار ما عنده، قرع للأمر ظنبوبه، وشدّ للحرب حيزومه، ورمى أحياء الترك بقداح هي فيما بينهم علامات الاستنفار، فثار إليه الطّم والرم:

جيوش تضلّ البُلُق في حَجَرَاتِهَا ترى الأكم فيها سجّداً للحوافر

وكتب الأمير سبكتكين إلى الأمير الرضا يستعجله اللحاق به، لتقدمهم هيئته في مناهضته الخصم وفلّ حدّه، وزحزحته عن صدر الملك إلى ما وراء حدّه. وأشفق ابن عزيز على نفسه من حركته للهنات التي كانت ألجأته إلى الهرب، واللياذ به من حر الطلب، تنصّح للرضا بأن الأمير سبكتكين وعامة ولالة الأطراف عبروا النهر في أحسن عدة وعتاد، وأبلغ استظهار واحتشاد، وأن المحن التي استمرت بك قد نفضت عن تحمل مثلك، ورحلت بزينة الملك عن رحلك، فقيح بك أن تجاور من حاله أعلى من حالك، ورجّالته أتم استظهارا من فرسان رجالك، والرأي لك أن تستعفيه عن شهادتك بنفسك على أن تحشر إليه وجوه القواد، في جماهير الأجناد، من أطراف البلاد،

وتحكمه فيما يراه من مسالمة أو محاكمة، ومكافحة أو مصالحة، ليكون فيصل الأمر بيديه على الوجه الذي هو أخف عليه.

فكتب الرضا بذلك إليه، فعلم أن ذلك من تسويل ابن عزيز وافتعاله، وتمويهه واحتياله، وقصده أن يحبط عليه سعيه الذي سעה في العبور، واستجاشة الجمهور، وتحمل الأثقال، واستنفاق الأموال.

فسرّب الأمير سيف الدولة وأخاه بغراجق في قرابة عشرين ألف رجل إلى بخارى لإزعاجه عن مكانه. وسيرّ معهما أبا نصر أحمد بن محمد بن أبي زيد لتدارك أمر الديوان الذي كان برسمه. فلما أحس ابن عزيز بإقبالهم، رأى ليث الموت كاشرا عن نابيه، وعقاب العقاب ناشرا جناحيه للانقضاض عليه، فابتغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء، حتى إذا أعياه ما توخاه، فزع إلى الانحجار، ولاذ بالاستتار. فولّى الرضا أبا نصر بن أبي زيد ما كان يليه، وهو الشهاب الثاقب، والنقاب الذي هدّبه المناقب.

فأقام بكفائته عماده، وقوم منآده، وصدف عنه ما كان قد آده، ووصفه أبو الفتح البستي بأبيات وفّى الصدق بها حقّه، وهي:

فدیت أبا نصر المرتجى	لتفريح كل ظلام يظل
له قلم حدّه لا يكلّ	إذا كان في الحرب سيف يكل
فيوجز لكّنه لا يخلّ	ويطنّب لکنه لا يمل
وكيف يمل وتوفيق من	أفاد العقول عليه يمل
تجود قريحته بالبدیع	عفوا كجود القراح المغل
مدق مجلّ وأولى الكفاة	بأعلى الصفات مدق مجل

وكتب إليه عند استقرار الوزارة عليه بهذه الأبيات:

أبلغ مقالي كل عاف مجتدي	ومؤمل في قصده أن يهتدي
عزّج على الشيخ الجليل المرتجى	وزر الوزارة أحمد بن محمد
فرواؤه ملء العيون وحبّه	ملء القلوب وسيه ملء اليد
يفري أمور الملك رأيا فيصلا	وعزيمة تزري بكل مهند
ويفيض نائله بسيل زاعب	فيقول سائله غرقت قدي قدي
فائن الرجاء إلى علاه فإنه	غوث الردي غيث الصدي بدر الندي

ذكر انصرف الرضا إلى بخارى بعد جلاء بغراخان عنها _____ ١٠٣

لا زال في يوم أغرّ مبشر بسعادة غراء تطلع في غد
ليقيم كل مؤود وينيم كل مسهد ويضم كل مبدد

وقد كان الأمير سبكتكين أحس بإبقاء ابن عزيز على أبي علي، وجده في النضال عنه لما يقدره في الأيام من التسليح به عليه، فلوح الرضا بميله إلى ما يقع من نقله إلى جنبه، فأوجب قبل وصول سيف الدولة إليه إسعافه به، وحمل هو وإيلمنكو في عمارة كانت خاتمة لعمره، قاصمة لظهره.

وأمر الأمير سبكتكين فنقل إلى جرديز في محمل لو رأى من قبل مثله في منامه لعاف برد الماء على زرقة جمامه، واستعفى عن طيب الحياة باقي أيامه.

نعم، وانحدر فيما بين نهوض سيف الدولة إلى بخارى، أيلك في قبائل الترك، واستأنف مسألة الصلح، فأوجب الأمير سبكتكين إجابته إلى ملتسمه، لقعود الرضا عن مشاهدته، وفتوره في أمر نهضته. واشترط عليه أن يتزحزح عما دون قطوان، فلا يطلق عليه عنانه، ولا يسرح إليه عماله وأعوانه، على أن يقر سمرقند على فائق إيجابا لشفاعته، ورعاية لما سلف في بيت الرضا من حق طاعته. وعقدت وثيقة الصلح على هذه الجملة بمشهد الفقهاء والأعيان من الجانبين. وانصرف كل واحد منهما عن وجه صاحبه.

وعاد الأمير سبكتكين إلى بلخ، وسار سيف الدولة نحو نيسابور، وهدأ على الرضا ما كان متموجا من أمور الأعالي. وأقبل أبو نصر على مهمات الوزارة، وأكبرها شغل الإثارة لتقلص الولايات، وقصور الارتفاعات عن الوفاء بما كان مثبتا في القديم من وجوه الأطماع والإقامات، وجعل يزجي فيها يوما بيوم، ويغسل دما بدم إلى أن ثار به بعض غلمانة فقتلوه، وذلك على رأس خمسة أشهر من وزارته، فضاق الرضا ذرعا بما دهاه لإشفاقه من ظن الأمير سبكتكين أن هناك قصدا في أمره، أو رضا للحادثة به.

وأظهر الاكتئاب، واستعظم المصاب. وبرز من الدار فصلى على جنازته، وأمر بإقامة التنكيل والتمثيل على الفتكة به.

وأنشدني المضراب البوشنجي فيه يرثيه:

قلوب الناس أمة سقاما ونفس المجد والهة سقيمة
وما فجعت بك الدنيا ولكن تركت بفقدك الدنيا يتيمة

وفيه لبعض أهل العصر:

وهوت نجوم المجد في ملحوده	لَمَّا ثوى صدر الوزارة أحمد
كالغيث بعد بروقه ورعوده	أذريت من فرط المصاب مدامعا
والطرف يمزج دمه بصديد	قال العذول وقد رأى فرط الجوى
دعني أبكيه بنسخة جود	خَفَضَ عليك فقلت قولاً زاجراً

ذكر أبي القاسم بن سيمجور أخي أبي علي وما أفضى إليه أمره بعد تقاعده عنه

ولما انحاز أبو القاسم عن أخيه، أقام حجرة إلى أن ورد الأمير سبكتكين خاستر من نيسابور، فنهض إليه متعرضاً للقائه، وتمهيد حال في ممالأته وولائه، فرعى حقه، ورفع قدره، وقوى أسرته، وضمن له ما سرّه، وخطب له إلى الرضا ولاية قهستان. فأجابه إليها، وأمر له بالمنشور عليها، وحيي إلى ذلك بخلع عرّفته يمنة الطاعة، وكسته يمنة العزّ في الاختلاط بالجماعة. فأوى إلى قهستان ساكن الجأش، ظاهر الرياش، أثيث الجناح، مريع المسرح والمراح، إلى أن سنح للأمير سبكتكين عبور النهر لتدبير أمر الترك، فكتب إليه يستنهضه إلى مجمع أركان الدولة وأعيانهم، ليضرب معهم بسهم الغناء في كفاية الأمر الحازب، وممانعة الخصم المغالب، فحملته تقوى العواقب، وإساءة الظن بالنوائب، وطراءة عهده بخبر أخيه فيما درع من لباس الهوان، وجرع من كأس الذل والامتهان على ترك المسير، والإدلاء ببعض المعاذير.

وعلم أن تقاعده عن إجابته سيورثه عند فراغه له داء عضالا، ويكسبه خطبا لا يطيق به استقلالاً، فبادر إلى نيسابور مغتتما خلّو خراسان عن حمايتها، وطابقه أبو نصر بن محمود الحاجب على فعله ورأيه، فتظاهرا على الاستظهار بجمع المال، وإثبات أصناف الرجال. وحين سمع الأمير سبكتكين بخبرهما، بادرهما بالكتاب إلى سيف الدولة في الانحدار إلى نيسابور، وأمدّه بأخيه بغراجق والي هراة لنقض ما أمر من أمرهما، وحصد ما نجم من شرهما. فسار إليهما ولم يرض بهما حتى انحط على أثرهما من بلخ كالشهاب في أثر العفاريت، فلم يرع أبا القاسم وابن محمود غير إطلال الجيوش عليهما. فارتحلا وامتطيا مطايا الهرب، وسارا إلى أستوا متقين حرّ القضب.

وركب الأميران أكتافهما يشلانهما مثل النعم، حتى لفظتهما حدود خراسان إلى تخوم جرجان. وامتد الأمير سبكتكين إلى طوس فأناخ بها إلى أن تطاير خبر إقباله، فزاد في حفزهما للانهازام، وإعجالهما دون المقام. وعطف إليه سيف الدولة وبغراجق بعد فراغهما من تفريغ خراسان عنهما، مجددين العهد به.

وقد كان فخر الدولة علي بن بويه قد تقرّب إلى الأمير سبكتكين عند مقامه ببلخ على سبيل الملاطفة بجملة من المبار، ومال من العين واللّجين على سبيل النثار،

اقتناصا لمحبيته، واستخلاصا لرضاه وموافقته. فقابله الأمير سبكتكين بأضعافه من الألفاظ، وزاده عليها ثلاثة من الفيلة الخفاف. وأرسل بها المعروف بعبد الله الكاتب أحد ثقاته، فمني إلى فخر الدولة تجسسه عليه عدد أجناده، وغوامض الطرق المفضية إلى بلاده.

فكتب إلى الأمير سبكتكين يشير إلى أن رسول المرء لسانه، وعنوان ضميره وترجمانه، وأن فلانا ورد فخالف باطن أفعاله ظاهر مقاله. وكان من بعض فصوله: «أنه لو أراد لعلم أن سرير الملك لم يستقر في سرّة الأرض إلا بغلب غلب وأسود سود». فحزّ هذا الكلام في صدره، وخدش وجه الحال التي كان خطبها فخر الدولة إلى ودّه.

ثم أردف كتابه ذلك بأبي القاسم الرسول أحد وجوه بابه، وأصبحه مشافهة مشتملة على ذكر الحال التي يروم عمارتها في مودته، وأن الرضا تبرّع له بالرعاية الوافرة، وبِلّ الحال ببلال المصاهرة، ولكنه يرى نظام ذلك وقوامه بما يوجبه من مواصلته وعمارة حاله من ذات صدره. وسأله أن يثق بالإخلاص له من قلبه، والإسعاف بما تحت يدي ملكه وملكه، وأن ينطوي له على مثل ما بذله من نفسه، لتستحصد المرائر، وتتأكد الأواصر، ويستمر التحالف والتآلف، ويرتفع التحالف والتجانف، فأحسن الأمير سبكتكين إجابته إلى ما طلبه، وأنكحه من سره ما خطبه، وصفت الحال بينهما عن الشوائب، وانتفت عن وجوه المقادح والمعائب.

واستأمن أبو القاسم بن سيمجور إلى فخر الدولة عند اليأس من خراسان، فاستدناه إلى الدامغان وقومس وجرجان، وفرض له ولمن اشتملت جريدته عليهم من حاشيته ورجاله مالا يدر عليهم. وسنأتي على بقية ذكره في موضعه إن شاء الله.

وورد على الأمير سبكتكين مؤنس الخادم رسولا عن الرضا يستشيريه فيمن يرشح للوزارة لخلوّ مكانها بعد أبي نصر بن أبي زيد عمن يراعيها، ويستقل بأعباء الكفاية فيها، فوكل الاختيار إلى رأيه، وأظهر مظاهرة من كان من وزرائه، فاختر أبو المظفر محمد بن إبراهيم البرغشي لها، وحبى بالخلعة والكرامة فيها، فكفل بالأمر كفالة التدبّ الحذب، وقام بالتدبير قيام المنقّح المشدّب، إلى أن اختطف الرضا أجله، وعشر بحياته أمّله.

وعطف الأمير سبكتكين بعد ذلك إلى بلخ، وعاد سيف الدولة إلى نيسابور. وقد كان أبو الحسن بن أبي علي بن سيمجور مقيما بقاين عند الوقعة بناحية طوس، فلما سمع بانكشاف عسكر أبيه، ركب المسافة نحو الري، فأواه فخر الدولة وأكرمه، وخلع عليه فضله وكرمه، وأمر له بخمسين ألف درهم مشاهرة تدرّ عليه عند ولاد كل شهر، وأضاف إليه من المبارّ والصلات ووجوه الأحمية والكرامات، ما تميز به عن أشكاله رعاية لحق أبيه، وتبجحا بحصول مثله في جملة أوليائه وحملة أياديه. فأغراه سوء القضاء ودرك الشقاء بالهرب من مفترش الراحة، ومتوسد الدعة، ومضطجع الرفاهية، ومرتفق السلامة والعافية، حتى زخّ بنفسه في قحمة الثبور من كورة نيسابور مطاوعة لهوى له كان زعم بها، وظن أن استتاره يطوي خبره، ويخفي عينيه وأثره، إلى أن يقضي من هواه وطره.

فلم يره إلا إحاطة الطلب به من حوالي مستره، فاحترشوه كما يحترش الضب من جحره، وعجلوا به إلى الحبس من فوره، وحمل بعد ذلك إلى معتقل أبيه، إلى أن نفذ محتوم القضاء فيه، فيا له من أسر هذّ أسره، وختم بطابع الشقاء عمره، ورحم الله أم المؤمنين أم سلمة حيث تقول:

لو كان معتصما من زلة أحد كانت لعائشة الربى على الناس
قد ينزع الله من قوم عقولهم حتى يتم الذي يقضي على الراس

وكان أميرك الطوسي قد اختلط بعسكر الأمير سيف الدولة، فلما عنّ له عبور النهر لتدبير أمر الترك، رأى الاحتياط في الاستيثاق منه، فألحق بأبي علي وذويه إلى أن حاق بهم القضاء، وحقّ عليهم الانقضاء، كذلك يفعل الله ما يشاء.

ولما استقر الأمير سبكتكين ببلخ بعد منصرفه من طوس، ورد الخبر بنفوذ قضاء الله تعالى في أبي علي ومن كان معه في حلق الوثاق، واستتبع خبره موت الملوك والعظماء بأطراف خراسان والعراق، في مدة اتصلت كعوب أيامها، وتناسقت فرائد نظامها، فكأنهم كانوا على ميعاد، وذلك أنه تلا خبره خبر مأمون بن محمد والي الجرجانية في فتك طائفة من أصحابه به في مأدبة صنعها صاحب جيشه له، فاستحالت المأدبة مندبة، والدعوة مناحة، والغناء عويلا، والسرور حزنا طويلا. وردفه خبر الرضا في مرضه، لم تمتد فيها أيامه حتى ألمّ به حمامه، وانتقل إلى ترابه بماء شبابه.

وكانت وفاته يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة سبع وثمانين وثلثمائة، ولقّبهُ كتاب بابه بالرضا، فرحمة الله عليه رحمة تبرّد ضريحه، وتروح روحه، فقد كان طود الملك زال بزواله، وزلّ عن مراسيه بزلزاله.

وتتابعت المصائب على الأمير سبكتكين بعده في تلك المدة بشقيقة له كانت أعز أهله عليه، وأولاد صغار، وغلمان دار، وهلمّ جزاً إلى أن سقط على الفراش، وآيس من الانتعاش، فتاق إلى غزاة استرواحا إلى طيب هوائها، واستشفاء بنسيم أرضها، ونمير مائها، فأخذ المقدور عليه بالمرصد، واختارته يد المنون دون المقصد، فنقل في تابوته إلى غزاة.

ومن العجب العاجب في أمره أنني حضرته ذات يوم وقد جرى حديث العلل في إقبالها وزوالها، فقال وهو يشير إلى كاتبه أبي الفتح البستي: مثلنا أيها الشيخ في اختطاف المنايا أرواحنا مثل القطيع يعمد الجراز إلى الضائنة منها فيطرحها إلى الأرض، ويوثق قوائمها للجزّ، فلا تزال تقلق لخلاف العادة، وتضطرب خوف الإبادة، إلى أن يقضي الجراز منها وطره، فيحل وثاقها، ويحسن إطلاقها، فترتاح لما يتاح لها من النجاة، ويعاد إليها من روح الحياة، حتى إذا كان من قابل، عاد الجراز لعادته فيها، فطفقت لها بين أمل ويأس، ونفرة واستئناس، تظن أن الأمر كما عهدت تارة، وتخشى خلاف العادة أخرى، إلى أن يقع الإفراج عنها فتطفر فرحاً بالنجاة، وتعود مرحى في النبات، فما هي إلا الثالثة حتى يسلمها إلى القصاب، فيمر الشفرة على ودجيتها أوثق ما كانت بالعادة، وأبعدها من المخافة، وآمنها من الآفة. كذلك نحن فيما يتعاقب علينا من الأمراض، ويستمر بنا من الأوصاب، بينا نحن نحسن الظن بما يطرق منها إذ قامت الواعية، وسارت بها الناعية. فكان بين هذا التمثيل وبين أن قضى نحبه قدر عفار النخل، فقضينا العجب بعده لما أملاه المقدور في شأنه على لسانه.

وقد كان قبل وفاته استجد عمارة الدار المعروفة بسهلاباذ، وأنفق عليها مالا عظيما، فلم يتمتع بسكنائها حتى خذله الرجاء، وحقّ عليه القضاء، واعتافها ولده من بعده، فأهملوا أمرها حتى تداعت بالخراب. وسمعت بعض الأفاضل ينشد وقد اجتاز عليها بعده في مدة يسيرة^(١):

(١) انظر: الحيوان ٦٠٣/٥.

عليك سلام الله من منزل قفر فقد هجت لي شوقا قديما وما تدري
عهدتك مذ شهر جديدا فلم أخل صروف النوى تبلي مغانيك في شهر
فلح الله دنيانا من ضبة تأكل أولادها عقوقا، وجافية لا ترعى لأضيافها أذمة
وحقوقا، وإلى الله المشتكى من صروف الزمان، وريب الحدثان.

ورثاه أبو الفتح البستي كاتبه بقوله:
قلت إذ مات ناصر الدين والدو لة حيّاه ربه بالكرامة
وتداعت جموعه بافتراق هكذا هكذا تقوم القيامة
وقوله أيضًا:

توكل على الله في كل ما تحاوله واتخذه وكيلا
ولا يخذعك شرب صفا فأنى قليلا وأروى غليلا
فإن الزمان يذل العزيز ويجعل كل جليل ضيلا
ألم تر ناصر دين الإله وكان المهيب العظيم الجليلا
أعدّ الفيول وقاد الخيول وصير كل عزيز ذليلا
وحفّ الملوك به خاضعين وزفوا إليه رعيلا رعيلا
فلما تمكّن من أمره وصار له الشرق إلا قليلا
وأوهمه العز أن الزمان إذا رامه ارتد عنه كليلا
أنته المنية مغتاطة وسلّت عليه حساما صقيلا
فلم يغن عنه حماة الرجال ولم يجد فيل عليه فتिला
كذلك يفعل بالشامتين ويفنيهم الدهر جيلا فجيلا

ولبعض كتاب أهل العصر:
مضى الأمير نصير الدين متشحا في قبره بمساع أشبهت علما
قد كان مدة ما قد عاش منتصبا لله والدين والإسلام منتقما
كاليث والغيث طبعاً أن حمى وهمى والنجم والرجم شكلاً أن سما ورمى
يا من أسال رقاب الكاشحين دما من بعد فقدك أبكيت العيون دما
لئن أناخ صروف الدهر ساحته فانظر إلى الملك والإسلام لا جرما

فالدين منثلّم والملك منهدم وظل جبل العلى والمجد منصرما
وردف الحادثة به النعي بفخر الدولة علي بن بويه. وكانت وفاتها في شعبان سنة
سبع وثمانين وثلاثمائة. وكان سبب انقراضه أنه فرع القلعة التي استحدثها على جبل
طبرك مرتاحا للأنس، فاشتبه طرائح من لحم البقر، فنحرت بين يديه واحدة، وطفق
أصحابه يضربون له من أطايبها، وهو ينال منها. وأتبعها بعناقيد كرم، ودارت عليه
الكؤوس بينها ملاء ولواء، فلم ينشب أن لوى عليه جوفه، واتصل على الألم صوته، إلى
أن جثم عليه موته. ورثاه أبو الفرج الساوي^(١) بقوله^(٢): [الوافر]

هي الدنيا تقول بملء فيها	حذار حذار من بطشي وفتكي
فلا يغرركم حسن ابتسامي	فقولي مضحك والفعل مبكي
بفخر الدولة اعتبروا فإني	أخذت الملك منه بسيف هلك
وقد كان استطال على البرايا	ونظّم جمعهم في سلك ملك
فلو شمس الضحى جاءته يوما	لقال لها عتوا أف منك
ولو زهر النجوم أبت رضاه	تأبى أن يقول رضيت عنك
فأمسى بعدما قرع البرايا	أسير القبر في ضيق وضنك
أقدّر أنه لو عاد يوما	إلى الدنيا تسربل ثوب نسك
دعي يا نفس فكرك في ملوك	مضوا بل لا نقراضك ويك فأبكي
فلا يغني هلاك الليث شيئا	عن الظبي السليب قميص مسك
هي الدنيا أشبهها بشهد	يسمّ، وجيفة طليت بمسك
هي الدنيا كمثل الطفل بينا	يقهقه إذ بكى من بعد ضحك
ألا يا قومنا انتبهوا فإننا	نحاسب في القيامة غير شك

(١) أشهر كتاب صاحب بحسن الخط مع أخذه من البلاغة بأوفر الحظ وكان صاحب يقول خط
أبي الفرج يهر الطرف ويفوت الوصف ويجمع صحة الأقسام ويزيد في نخوة الأقلام. [انظر: يتيمة
الدهر ٤٥٨/٣]

(٢) انظر: مختصر المعاني ٤٢٥/١، والإيضاح في علوم البلاغة ٣٩٣/١، ومعاهد التنصيص

فأما مأمون بن محمد فإن ابنه عليا ولي الأمور من بعده، وسارع الناس إلى بيعته، وعاد الملك به إلى بهائه وروعته.

وأما الرضا فقد كان عهد بملكه إلى ابنه أبي الحارث منصور بن نوح، فلما استعز به ومضى لسبيله، تناصر على بيعته الأولياء والحشم، وفرق بقايا الأموال وخبايا الذخائر والأعلاق في أعطيائهم، وتحقيق أطماعهم، حتى استوسقت أمور الجماعة، واتسقت الكلمة في الطاعة. وبقي أبو المظفر محمد بن إبراهيم على الوزارة.

وأما الأمير سبكتكين فقد كان عهد إلى ولده إسماعيل، واستخلفه على أعماله، وأوصى إليه بأمور أولاده وعياله، وجمع وجوه قواده وحجابه على طاعته ومتابعته، والرضا بإيالته وولايته، فلما طرق الناعي به، تبادروا إلى عقد البيعة له، وإمضاء الوصية فيه. واستقر إسماعيل بعد قضاء المأتم على سرير الإمارة، وأمر بفض الختم عن بيت الخزانة، وصب الأموال حتى أَرْضَى الرجال.

وأما فخر الدولة فإن عسكر الدّيلم اجتمعوا على ولده الأمير أبي طالب رستم ابن فخر الدولة، ففوضوا الأمر إليه، وحفظوا نظام الملك عليه، ولقّبهُ الخليفة بمجد الدولة وكهف الملة. وسيأتي بيان حال كل واحد منهم في موضعه على الأثر.

وأنشدني أبو منصور الثعالبي لنفسه في عجائب هذه السنة، وتبدّل أحوالها، وتفاني أمرائها قصيدة منها هذه الأبيات^(١): [الطويل]

ألم تر مُدَّ عامين أملاك عصرنا	يصيح بهم للموت والقتل صائح
فنوح بن منصور حوته يد الردى	على حشرات ضمّنتها الجوانح
ويا بؤس منصور وفي يوم سرخس	تمزق عنه ملكه وهو طائح
وفرّق عنه الشمل بالسمل فاغتندى	أسيرا ضريرا تنتحيه الجوائح
وصاحب مصر قد مضى لسبيله	ووالي الجبال قد علته الصفائح
وصاحب جرجانية في ندامة	ترصّده طرف من الحين طامح
تساقوا كؤوس الراح ثم تشاربوا	كؤوس المنيا والدماء سوافح
وخوارزم شاه شاه وجه نعيمه	وعنّ له يوم من النحس كالح

وكان علا في الأرض يخبطها أبو
 فعارضه ناب من الشر أعصل
 وصاحب بست ذلك الضيغم الذي
 أناخ به من صدمة الدهر لكل
 خيول كأمثال السيول سوابح
 جيوش إذا أربت على عدد الحصى
 ودارت على صمصام دولة بويه
 وقد جاز والي الجوزجان قناطر الـ
 وفائق الم محبوب قد جبّ عمره
 مضوا في مدى عامين فاخطفتهم
 وكان بنو سامان أطواد عزة
 أمالك فيهم عبرة مستفادة
 تسلّ عن الدنيا ولا تخطبها
 فليس يفي مرجوها بمجوفها
 لقد قال فيها الواصفون فأكثروا
 سلاف قصارها ذعاف ومركب
 وشخص جميل يؤنس الناس حسنه

عليّ إلى أن طوّحته المطاوح
 وعنّ له طير من الشؤم بارح
 برائنه للمشرقين مفاتح
 فلم يغن عنه والمقدّر سانح
 فيول كأمثال الجبال سوارح
 تغصّ بها قيعانها والصحاصح
 دوائر سوء نبلهنّ فوادح
 حياة فوافته المنايا الطوائح
 ففاظ ولم يندبه في الأرض نائح
 عقاب إذا طارت تخرّ الجوارح
 فأضحت لصرف الدهر وهي أباطح
 بلى إن نهج الاعتبار لواضح
 ولا تخطبن قتالة من تناح
 ومكروها أما تدبرت راجح
 وعندي لها وصف لعمر ك صالح
 شهّي إذا استلذذته فهو جامح
 ولكن له أسرار سوء قبائح

ولما أفضى أمر الإمارة إلى أبي الحارث منصور بن نوح، وهو في حدة البلوغ،
 وينع الشباب، وعند مشتعل الحركة، ومستصبح النجابة، ومستوضح الأصالة والإصابة،
 أقام أبا المظفر محمد بن إبراهيم وزيرا، وفوض الملك إلى فائق كفالة وتديرا. وكان
 عبد الله بن عزيز اتقى شوكة الأمير سيف الدولة عند قصده بخارى بالإصعاد إلى
 الأعالي، فلما انقضت حياة الرضا، أطمع أبا منصور محمد بن الحسين الاسييجابي في
 صحابة الجيش بخراسان، وحمله على الانحدار به إلى بخارى مستعينا بأهلك الخان،
 على نيل الأرب المنشود، وإصابة الغرض المقصود. فنهض أهلك لمصاحبتهم، وسار
 إلى باب سمرقند بهما، حتى إذا أناخ بمرج على ظاهرها، أناه أبو منصور في خفّ من

علمانه زائراً، فاحتبسه بعلّة الطعام، وأصحابه بين التخييم والاستجمام، فأمر به وبابن عزيز، فشدّا في حلق الوثاق، وقرنا في قرن الاعتقال، وأرسل إلى فائق، فلما أتاه أجله ورفع محله، وخفّ عن مكانه إكباراً له، وضم إليه ثلاثة آلاف رجل، وأمره بالمسير إلى بخارى على مقدمته، فسار على ما رسم له.

فلما بلغ أبا الحارث خبر إقدامه، ارتجّ عليه وجه الصواب، وصرّ عليه رجل الغراب. وأعجلته فظاعة الخبر عن التدبير، فبادر إلى العبور بمن معه من صغير وكبير. ودخل فائق بخارى، فبادر إلى الباب، ولثم خدّ التراب. وجلس مجلس الحجاب. وأظهر القلق والالتياح، لإخلال أبي الحارث بدار عزّه وشرفه، ومقر الماضين من سلفه، وجشّم مشايخ بخارى إليه في مسألته تقديم الإياب، وتعجيل الانقلاب، فوثق إذ ذاك به، وأمر بالكتاب إليه في إحماده على طاعته وتقربه، فكان مفتتح ما خوطب به من جعل المخالصة «وليك الله» زماما يمدّه، والمناصحة إماما يهديه ويرشده، فمسعود وقوفه حيث وقفته هذه، ومحمود تصرفه حيث صرفته تلك.

وارتاح أبو الحارث للانصراف حين أمن جانب الخلاف، وسيّر قبل صريمة الرأي بكتوزون وهو الموسوم بالحجة الكبيرة على بابه إلى نيسابور على قيادة الجيوش ولقبه بسنان الدولة. ثم عبر النهر عائدا وراءه، فتلقاه فائق مقيما رسم العبودة، ومؤديا فرض الطاعة المحمودّة. وانكفأ به إلى بخارى واستقام له الأمر، وخمد ذلك الجمر.

وقد كان بين فائق وكتوزون سخيمة، وإحنة في الصدور قديمة، فاستحلفه أبو الحارث على الإغماض له فيها، والإغضاء عنها، والعفو عما حرّ في صدره منها، استبّاتا لإقدامهما في الطاعة، واستجماعا لأهوائهما في المتابعة. فأظهر الانقياد، وحلف بما أراد، واستقرت أمور السالاريّة بخراسان على بكتوزون؛ فجبى أموال خراسان لأبي الحارث من غير منازع ولا مدافع، إلى أن طارت النّعة في رأسه، فارتقى من قصد سلطانه وولي نعمته، إلى ما عرّض به الملك للهلك، والدولة للعولة، وأرّخ الدهر بعار لا يرحض عنه وضره، ولا يدفع عن وجهه قتره.

ذكر ما جرى بين الأمير سيف الدولة وبين الأمير إسماعيل أخيه بعد انتصابه في الإمارة منصب أبيه

ولما احترم الأمير سبكتكين واستقر الأمر على إسماعيل، طمح أهل العسكر إلى مال البيعة، فأمر به، فأطلق لهم استحقاقهم المعين استصلاحاً لذات البين. ثم أحس القوم خوراً في عوده، ورخاوة في عنان تديره، لحدائث سنّه وطراءة شبابه، وإشفاقه على نفسه من جانب أخيه وقصده، وانتزاعه الأمر من يده، فاستوطأوا مركب الطمع، واستسهلوا جانب التحكم، وتحزّبوا للمطالبة بزيادات على الراتبه لهم، حتى استغرق ذلك ما خلفه الأمير سبكتكين، وخلت الخزانة عما يسع الاستظهار به. فاضطر إسماعيل إلى أن يفزع فيما ينوبه آنفاً من مؤمن أطماعهم إلى العدة التي كانت مذكورة له بغزنة، فلو بقوا على جملةتهم في التسحب عليه، لأسرع تمزّق شمل تلك الأموال، وتفرّق جمع الأولياء والرجال.

ولما ورد على الأمير سيف الدولة نعي أبيه، وقضى أيام المصيبة فيه، بادر بالكتاب إلى أخيه إسماعيل بغزنة في التعزية عن عارض الرزية، وأتبعه بأبي الحسين الحمولي في إذكاره بحق الكبر، وما يجب له بحكم الزعامة على أهل البيت، وتعريفه أنه منه بمنزلة العين الباصرة أو أعزّ، واليد الباطشة أو أمزّ، وأنه سيلغ في أمره كل ما يهواه ويرضاه، ويتعلق به مناه. وأن الأمير سبكتكين إنما أفردته بالوصية لإعجال المنية إياه عن وضعها منه موضع الاستحقاق للضرورة العارضة من بعد المسافة وتقاذف الشقة، وأن الرأي فيما يهتزّ له من توفيته حكم الرئاسة، ومشاطرته الإرث من ذخائر الإمارة، وإفراده بغزنة التي هي وكر عشيرته وحامته، ومعشش خاصته وعامته، على أن يحفظ عليه مكانه من بلخ وما يليها، أو ينقله إلى نيسابور، على ما كان يدبره من أعمالها ونواحيها.

فاستشعر إسماعيل ما كتب الله عليه من النكبة في أيامه حتى كأنه يراه رأي العيان، ويدرس عليه كتاب البرهان. فلم يزد إلا على الإباء والالتواء، وتعريض تلك الأموال للإتواء.

وتوسط والي الجوزجان أبو الحارث بينهما على أن يسكن نابض الخلاف، ويقف بهما على نقطة العدل والإنصاف. وأراد كلا منهما على التلاقي قبله، ليشافه كل منهما أخاه بما يقترحه من مراد، ويقنّده من زناد، إذ كانت لوجوه المشافهة حرمة يعزّ مثلها

على ظهر البعاد، فيحال التحيّر والانفراد. فأما الأمير سيف الدولة فإنه رأى ذلك صواباً، وأوجب من نفسه إسعافاً. وأما إسماعيل فإنه ندّ عن الإجابة، ولحظ الأمر بعين الاسترابة، ورأى التسمّح بما يقترح عليه من مال الإرث - وإن كان فادحاً كله - أهون عليه من ذلك مرأماً، وأيسر حملاً والتزاماً، ذعراً تمكن من نفسه، ورعباً سرى إلى صميم قلبه، وخيفة سالت به في أودية الظنون، ونفرتة عن ضم القوادم للسكون.

وأُنشدته ذات يوم أبياتا لسيف الدولة^(١) في أخيه ناصر الدولة الحمدانيين معرّضاً بالألفة التي هي أوطأ مهاداً، وأخصب مرتعاً ومراداً. وهي^(٢):

رضيت لك العليا وإن كنت أهلها وقلت لهم بيني وبين أخي فرق
ولم يك بي عنها نكول وإنما تغافلت عن حقي فتم لك الحق
ولا بد لي من أن أكون مصلياً إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق

فرجعت عن مقاصدها من ذرعه، وطاشت سهامها دون الغرض المقصود بها من

سمعه.

(١) سيف الدولة الحمداني: (٣٠٣ - ٣٥٦ هـ / ٩١٥ - ٩٦٧ م): وهو علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي الربيعي، أبو الحسن، سيف الدولة. الأمير، صاحب المتنبي وممدوحه.

يقال: لم يجتمع باب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع باب سيف الدولة من شيوخ العلم ونجوم الدهر!

ولد في ميفارقين (بديار بكر) ونشأ شجاعاً مهذباً عالي الهمة. وملك واسطاً وما جاورها. ومال إلى الشام فامتلك دمشق. وعاد إلى حلب فملكها سنة ٣٣٣ هـ، وتوفي فيها. ودفن في ميفارقين. أخباره ووقائعه مع الروم كثيرة. وكان كثير العطايا، مقرباً لأهل الأدب، يقول الشعر الجيد الرقيق، وقد يُنسب إليه ما ليس له.

وهو أول من ملك حلب من بني حمدان. وله أخبار كثيرة مع الشعراء، خصوصاً المتنبي والسري الرفاء والناسي والبغاء والوآء وتلك الطبقة.

ومما كتب في سيرته (سيف الدولة وعصر الحمدانيين - ط) لسامي الكيالي. انظر ترجمته في: يتيمة الدهر ١ / ٨ - ٢٢ والوفيات ١ / ٣٦٤ وزبدة الحل ١ / ١١١ - ١٥٢، والأعلام ٤ / ٣٠٤.

(٢) انظر: يتيمة الدهر ١ / ٤٦، وتاريخ ابن الأثير ٨ / ٥٨٠، وابن خلكان ٢ / ١١٦.

وبعل الأمير سيف الدولة بتدبير ما عراه، لاستحبابه الرفق على الخرق، وميله إلى المدارة على الملاحة، والمواناة على المناوأة، واختياره البرّ على الجفاء، وادّخاره الكيّ لآخر الدواء، حتى إذا غار نجم الهوادة، ورقّ جلباب الحشمة، استعد لإتيان الأمر من بابه، ورد المنتزع منه إلى نصابه، وخاطب الأمير أبا الحارث بما عنّ له من المهم الذي لا يسعه غير تلافيه، ونثّل كنانة الوسع والطاقة فيه. وسار في خواص غلمانه ورجاله، وقوّاه المندوبين لاتباع أمثاله إلى هراة، واستأنف بها مكاتبة إسماعيل بين وعد ووعد، وتمنية وتهديد، وترجيح بين اليأس والأمل، وتنبية على موقف الندامة والخجل، فلم يغن ذلك منه فتيلًا، ولم ينقض من قوى عقده سحيلًا، وتراجعت المكاتبات بينهما حتى جد مزاح الكلام، واشتد لفح الخصام، وأعيا فيصل الأمر إلا بحدّ الحسام.

ودعا الأمير سيف الدولة عمه بغراجق إلى مساعدته ومرافقته، واتباع مصلحة البيت بمتابعته، فتسارع إلى طاعته، وأقرّ بالحق عليه في مشايعته، واتباع رايته. وخفّ معه إلى بست وبها الأمير أبو المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين، فصادف سيف الدولة منه وليا مطيعا، وصفيّا إلى الانقياد سريعا، هوى منه لم يرض بزمام وخطام، ومحبة لم تذلل بإسراج وإلجام، فتبرّع بالانقياد، وتسرع إلى المراد، وجرى في حلبة الطاعة طلق الجواد. ولما سمع إسماعيل برحيل الأمير سيف الدولة إلى جانب غزنة، سبقه إليها من جانب بلخ متجردا للممانعة، محتشدا للمقارعة والمدافعة. وسار الأمير سيف الدولة إلى جانب غزنة في عمه وأخيه، وسائر أوليائه ومواليه، حتى أناخ بظاهر غزنة، وقد تطاير إليه من قبل كتب الأعيان من قواد إسماعيل في ممالأته عليه، لما عرفوه من وهي أمره في الرئاسة، وضعف يده عن حق السياسة، وتردد السفراء بينهما في الاستصلاح، وكفّ عادية الكفاح، فأبى الله إلا ما كان مقدورا، وجعل الحقّ مشهورا، والمحقّ منصورا.

وانتدب الأمير سيف الدولة للحرب فعبى المواكب، ورتب الجيوش كواكب.

ودلف إلى القتال في رجال كالرماح، أو كالتَّهال القماح، يهشّون للقراع، هشاشة
الأطفال للرضاع، ويرتاحون للكفاح، ارتياح الهيم للماء القراح، كما قال أبو تمام^(١):
[الكامل]

سفع الدؤوب وجوهم فكأنهم	وأبوهم سام أبوهم حام
تخذوا الحديد من الحديد معاقلاً	سكانها الأرواح والأجسام
مسترسلين إلى الحتوف كأنما	بين الحتوف وبينهم أرحام
آساد موت مخدرات ما لها	إلا الصوارم والقنا آجام

وبرز إسماعيل بمن شايعه من مواليه، وتابعه من رجال أبيه، وقد حصّن الصفوف
بفيلته العظام، كأنها أركان يذبل أو هضاب شمام. ودنا الفريقان بعضهم من بعض ضرباً
بالسيوف البواتك، وطعنا بالرماح الفواتك، ورضاً للهام من تحت الترائك.

فظلت رحي الحرب تعركهم بثقالها، وتدور عليهم بأثقالها، إلى أن رمت الشمس
بجمرات الظهيرة، وقد لاذ بالأمان من سبق وعده، وطلع بالإقبال سعده. وعندها حمل
الأمير سيف الدولة بنفسه، فتداعت الزخوف، وتخالطت الصفوف، وخطبت على منابر

(١) الأبيات في الديوان ١/ ١٧٠.

أبو تمام: (١٨٨ - ٢٣١ هـ / ٨٠٣ - ٨٤٥ م): وهو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي.
أحد أمراء البيان، ولد بجاسم (من قرى حوران بسورية) ورحل إلى مصر واستقدمه المعتصم إلى
بغداد فأجازه وقدمه على شعراء وقته فأقام في العراق ثم ولي بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفي
بها.

كان أسمر، طويلاً، فصيحاً، حلو الكلام، فيه تمتمة يسيرة، يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من
أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع.

في شعره قوة وجزالة، واختلف في التفضيل بينه وبين المتنبي والبحتري، له تصانيف، منها فحول
الشعراء، وديوان الحماسة، ومختار أشعار القبائل، ونقائض جرير والأخطل، نُسب إليه ولعله
للأصمعي كما يرى الميمني.

وذهب مرجليوث في دائرة المعارف إلى أن والد أبي تمام كان نصرانياً يسمى ثادوس، أو ثيودوس،
واستبدل الابن هذا الاسم فجعله أوساً بعد اعتناقه الإسلام ووصل نسبه بقبيلة طيء وكان أبوه خمراً
في دمشق وعمل هو حائكاً فيها ثم انتقل إلى حمص وبدأ بها حياته الشعرية.

وفي أخبار أبي تمام للصولي: أنه كان أجش الصوت يصطحب راوية له حسن الصوت فينشد شعره
بين يدي الخلفاء والأمراء.

الرقاب السيوف. وثارت عجاجة أخذت العيون عن الأشباح، وأذهلت النفوس عن
الأرواح، ونثرت الأعناق بأيدي الصفاح، وأقعصت الحماة من وقع السلاح، وظلت
سنابك الخيول تردي على جثث النفوس، وتلعب بأكر الرؤوس^(١): [البسيط]
تجري الجياد من القتلى على جبل ومن دمائهم يرحضن في وحل
ومن جماجمهم يصعدن في نشز ومن ذوائبهم يقمصن في شكل
فلم ينشب أن أسفر قتامها عن مساقط أبدان تحت أبدان، وأجسام فوق هام. وهام
الآخرون على وجوههم يمسحون طول الأرض خوفا من حرّ العقاب ومّر الحساب.
وانحاز إسماعيل إلى قلعة غزنة متحصنا بها في العاجل من مسّ الطلب، إلى أن
تلطف له الأمير سيف الدولة فاستنزله على أمان وحسن ضمان، وجاوره بمعروف
وإحسان.

(١) انظر: يتيمة الدهر ٤٥٥/١. ونسبه لأبي إبراهيم إسماعيل بن أحمد الشاشي العامري.

ذكر ما جرى بين أبي القاسم السيمجوري وبكتوزون بعد ذلك

وقد كان أبو القاسم بن سيمجور انتقل إلى جرجان بعد انقراض فخر الدولة على طاعة ولده مجد الدولة، فضوى إليه من شدّ عنه من عسكر أخيه وموالي أبيه، واتصل به طوائف من أبطال الأكراد والعرب، فاشتدت بهم مناكبه، واحتدت أنيابه ومخالبه، وكانت الحسيكة التي ينطوي عليها فائق لبكتوزون ترصده بالحبائل، وترميه بأغوال الغوائل، فأرسل إلى أبي القاسم يحزّشه عليه، ويغريه به ويعدّه ما يليه، من قيادة الجيوش متى أجلاه عن مكانه، وجلاه في معرض العجز على سلطانه، حتى أجهضته عن جرجان تاركا العين بالضمّار، وعارضا الملك على خطر القمار، فكان مثله كما قال ابن هرّمة^(١): [المتقارب]

وإني وتركّي ندى الأكرمين وقَدَحِي بِكَفِّي زُنْدا شَحَاحَا
كتاركَة بيضها بالعراء ومُلْبِسَة بيض أخرى جناحا

ففصل عنها قاصدا قصد نيسابور، في جماهير أصحابه ممن ضرّستهم وقائع الحروب، ونجذتهم قوارع الخطوب، وكوتهم صروف الأيام بمياسمها، وداستهم أحداث الليالي بمناسمها. وأفرط أبا علي بن أبي القاسم المعروف بالفقيه على مقدمته

(١) البيتان في الشعر والشعراء: ٤٧٤، ومجموعة المعاني: ٨٣ وحماسة البحّري: ١١٥ والثاني في الميداني ١/ ١٥١ والمعاني الكبير: ٢١٣ والموشح: ٢٣٧، وثمار القلوب ٣٥٣.

إبراهيم بن هرّمة: (٨٠ - ١٧٦ هـ / ٦٩٩ - ٧٩٢ م): هو أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرّمة بن هذيل بن ربيع. ينتهي نسبه إلى الحارث بن فهر، وفهر أصل قريش، تربى في قبيلة تميم وهي من القبائل العربية الكبيرة في شرق الجزيرة، كان لها شأن في الجزيرة والإسلام. شاعر مشهور من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، ذكر الأصمعي أنه رآه ينشد الشعر بين يدي الرشيد.

اتفق ابن الأعرابي والأصمعي: على أن الشعر ختم بابن هرّمة وبخمسة من معاصريه إلا أن الأصمعي قدمه عليهم وكان يقول: ما يؤخره عن الفحول إلا قرب عهده وقد تنقل بين المدينة ودمشق وبغداد يمدح الخلفاء.

له (ديوان - ط)، ودفن بالبقيع بالمدينة.

انظر ترجمته في: الشعر والشعراء ٦٣٩/٢، وطبقات ابن المعتز ٢٠، والأغاني ٣٦٧/٤، والخزانة للبغدادى ٤٢٤/١.

إلى إسفرايين وبها بعض قواد بكتوزون، فالتقيا هناك على حومة الحرب، وتساقيا كؤوس الطعن والضرب. وتداركت الأمداد على أبي علي، لقرب الخطى بينه وبين صاحبه فجفل عنه أصحاب بكتوزون منهزمين إلى نيسابور، وقد اقتسموا بين جرح وكسر، وقتل وأسر.

وسار أبو القاسم سير السحاب تحته ريح الجنوب، حتى أناخ بظاهر نيسابور مستطيلا بشوكة رجاله، وشكة أبطاله، فأرسل إليه بكتوزون يعلمه أن الحروب سجال، وحسن الظن بعواقبها محال، وأن في قرع باب البغي تعرضا للبلاء، واستئذانا على سوء القضاء، وإنما يصبر على الكفاح من لم يجد وجها للصالح والصلاح. فأما من كان في فسحة من الرأي وندحة من الاختيار، فإنه بنفسه عن التغيرير بها في مباشرة القتال، ومساورة الأبطال، ومغامسة الأهوال. وإن الرأي له أن يعدل إلى قهستان ليتنجز له من الأمير أبي الحارث ولاية هراة معها رعاية لحق خدمته وقدمته، وسابق مواته وأذمته. فضربه أبو القاسم بأذن مستكة عن الانتصاح، منسدة عن الصلاح. وحمله الإدلال بحاله ورجاله على التحكم والتسحب، والتمتع والتعصب، وأهاب بعسكره إلى الحرب. فاصطبحوا على مساقاة الطعان والضراب، ومعاناة الحراب بيض الصفاح وزرق الحراب، ذاهلين عن مصرع الغرر، واثقين بمطلع النجاح والظفر.

وعبى بكتوزون رجاله الفتاك، وأشباه الأتراك، في سائر من أظلتهم رايته من قواد الأمير أبي الحارث وأنصاره، والمعتصمين بذمة شعاره، فالتفوا قبالة قرية تدعى بشنجة بظاهر نيسابور، واجتلى أبو القاسم منهم نجوما ورجوما، ولاقت بكارته الحقائق قروما. واشتبكت الحرب بينهم نفحا بالمناصل، وضربا بالمعاول ووخزا بأطراف العوامل، واشتعل أصحاب أبي القاسم فيهم كالنار في دقاق العوسج، أو ييس العرفج، ضربا هبرا، وطعنا نترا، ورميا سعرا، وطرحوا ميمتهم على ميسرتهم طردا ودحرا، وقهرا وقسرا، حتى إذا ظنوا أن قوادم الهزيمة، قد أفرجت لهم عن خوافي الغنيمة، صك بكتوزون قلب أبي القاسم بحملة أزلقتهم عن المقام، وأعجلتهم للانهازم، فانصاعوا مخدولين مفلولين يقودهم الخجل، ويسوقهم الخوف والوجل، وقبض في منازعتهم على أبي القاسم الفقيه أحد أركان أبي علي في أيامه بمشهور رأيه ودهائه، ومذكور غنائه ومضائه، وعلى عدة من قواده، ووجوه سواده.

وفز أبو القاسم في شذاذ عسكره هائما على وجهه حتى امتدّ به الوجيف إلى قهستان وذلك يوم الجمعة لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلثمائة. وكتب بكتوزون إلى بخارى بذكر الفتح، وما يَسره الله عليه من عسير النجح، فسَرَ الجمهور، وأثلج الصدور، ما خلا فائقا، فإنه اغتمّ واهتمّ، وكاد أن يعقد المأتم. وسار أبو القاسم بعد ارتياشه وانتعاشه إلى بوشنج متحكما في أموالها وأعمالها. وناهضه بكتوزون لانتزاعها من يده. وتوسط السفراء بينهما على وصلة انقعدت بينهما، ورهنه أبو القاسم ابنه المعروف بأبي سهل، فارتقع من بينهما الخلاف، وحصل الاتفاق والاتلاف، وعاد أبو القاسم إلى قهستان، وكرّ بكتوزون إلى نيسابور في رجب من هذه السنة.

وجرت بين فائق وأبي المظفر محمد بن إبراهيم البرغشي ملاحاة في تدبير الأعمال والأموال، فأرصده لها بالسوء، وقصده بالمكروه من أكثر الوجوه، فلاذ بأبي الحارث من قصده، واستأمنه على نفسه، فأواه داره، وأدرّ عليه مبارّه.

وأتاه فائق يسأله تمكينه منه، وإيثاره به، فجبهه بالرد، وأغلظ له في القول فخرج من مجلسه على حد منكب يتحدث بالانقطاع إلى الترك، والإخلاف بكفالة الملك، حتى سفر بينهما مشايخ بخارى فثأوا فائقا عن رأيه، واستماحوا الأمير أبا الحارث حسن عفوهِ وإغضائه.

وسير أبو المظفر إلى ناحية الجوزجان، وسدّ مكانه بأبي القاسم البرمكي، فصدمت فيه فراسة المعروف بالمضرب الشاعر البوشنجي حيث يقول^(١): [المتقارب]

وكنّا زمانا نذمّ الزمان ونرثي الوزارة بالبلعمي
فأخرنا العمر حتى انتهت من البلعمي إلى البرغشي
وسوف تؤول على ما أراه منه قريبا إلى البرمكي

وكان أبو القاسم هذا موصوفاً بالفضل، إلا أن أغلب الصفات عليه صفة البخل، وحين ولي الوزارة، ناقش أولياء ذلك الباب في أعطياتهم الواجبة، وجراياتهم الراتبية،

وعارض أطماعهم في خاصته بزند شحاح، ووجه على الرد وقاح، فلم يره إلا دبايس الأتراك تهشم قذاله، وترضّ عظامه وأوصاله، ولقد أحسن من قال^(١):

يقول لي دعبل^(٢) في ثوبه خبل ولو تمس ثيابي دعبلا خبلا
ودعبل رجل ما شئت من رجل لو كان أسفله من عرضه نحلا
لا والذي سبك الصهباء من ذهب والكأس ياقوتة ما ساد من بخلا

(١) انظر: الأغاني ١٨٦/٢٠.

(٢) دعبل الخزاعي (١٤٨ - ٢٤٦ هـ = ٧٦٥ - ٨٦٠ م) دعبل بن علي بن رزين الخزاعي، أبو علي: شاعر هجاء.

أصله من الكوفة. أقام ببغداد. له أخبار، وشعره جيد. وكان صديق البحتري.

وصنف كتابا في (طبقات الشعراء).

قال ابن خلكان في ترجمته: كان بذئ اللسان مولعا بالهجو والحط من أقدار الناس، وهجا الخلفاء - الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق - فمن دونهم، وطال عمره فكان يقول: لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك ! توفي ببلدة تدعى الطيب (بين واسط وخوزستان) وكان طوالا ضخما أطروشا، له (ديوان شعر - ط) جمع فيه بعض الأدباء ما بقي متفرقا من شعره.

انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ١/ ١٧٨ ومعاهد ٢/ ١٩٠ والشعر والشعراء ٣٥٠ ولسان الميزان ٢/ ٤٣٠ وتاريخ بغداد ٨/ ٣٨٢ وفيه: (اسمه عبد الرحمن، وإنما لقبته دايته لدعابة كانت فيه، فأرادت ذعبلا فقلبت الذال دالا) وفي كتاب (لمحات أدبية عن ليبيا) الصفحة ٢٥ رواية عن البكري الجغرافي، أن وفاة دعبل كانت في مدينة زويلة في ليبيا.

ذكر إنزال إسماعيل من قلعة غزنة

واستنزل الأمير سيف الدولة أخاه إسماعيل من قلعة غزنة على أمان بذله، وضمن أجمله. وتسلم منه مفاتيح الخزائن، وأحاط بزوايا الأعلاق والدفائن. وجبر له كسر حاله، وأعاد إليه رونق مائه وجماله. وشحن غزنة بثقاته، والكفاة من حماته. وانحدر إلى بلخ في عامة أوليائه وأنصاره، وقد انتظم له ما انتشر بعد أبيه، واستقر عليه ما سعى في تلافيه، فغصت شعاب بلخ وضواحيها بطبقات رجاله، وعلامات الأعلام من أفياله، فكتب إلى الأمير أبي الحارث بذكر إقباله، وحذفه فضل الشغل الذي كان بأخيه عن باله، وأنه قائم مقام أبيه في المحاماة عن الدولة، والنضال عن الجملة، والإقبال على قضاء حقوق ما تعرّفه من بركة اصطناع الرضا واصطفائه، وتقديمه على زعماء حشمه وأوليائه. فأرسل إليه أبو الحسن العلوي الوصي الهمداني في تهنئته بمقدمه، وإظهار اليمن بموطيء قدمه. وعقد له على بلخ وترمذ، وما والاهما، وديار بست وهراة وما تاخهما وداناهما، وتلطّف في الاعتذار إليه من أمر نيسابور حرصاً على ترضيته، وكراهة لصرف بكتوزون عنها إلا بعله تقتضيه.

فعلم الأمير سيف الدولة أن تلك المناقشة صادرة عن تمويه الحساد، وتليس المناوئين والأضداد، وأن داء الحقد ليس له علاج، وأن صلاة النجح بغير فاتحة البر خداج. فأرسل إلى الأمير أبي الحارث ثقته أبا الحسين الحمولي بهدايا يضمن بمثلها سمح النفوس، ويضيق عن قدرها رحب الصدور. ورسم له أن يحجب سمعه عن تضريب المضربين، وتثريب المثربين، ويتلطف لاستخلاص سرّه له، واستصفاء محله قبله، لترتفع الحشمة، وتتأكد العصمة، وتستحكم الثقة، ويعرّفه بأن تخيّمه بعرضات خراسان إنما هو من أجل موالاته، وتدبير أمور ولاياته.

فلما ورد بخارى، أعرض عما وجّه له، وعرضت الوزارة عليه لموافقة مورده،

وخلوّ صدرها عمن يستقل بأمرها، فكان مثله كما قيل^(١): [الكامل]

خَلَّتِ الدِّيَارُ فُسْدَتْ غَيْرَ مُسَوِّدٍ وَمِنَ الشَّقَاءِ تَفَرَّدِي بالسَّوْدِ

(١) البيت لحارثة بن بدر الغداني، التابعي، رضي الله عنه.

انظر: شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ١٦٨/٢، والأغاني ٤١٧/٨، والحماسة ٣٣٤/١.

واشتغل بالوزارة عن حق السفارة، وأقبل على الأمر بوجه المجدّ المستبدّ، يريد
سكر ما انبثق عليه النهر، وكتمان ما نمّ عليه الجهر، ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر.
وأنشدني المضراب لنفسه فيه:

وكنّا نذمّ الدهر من غير حنكة بيوسفه والبلعمي وغيره
إلى أن رمانا بالغفاري بعدهم وعاندنا في عبده وعزيره
وما قد دهانا بابن عيسى وجوره وفي ابن أبي زيد التّخيب وسيره
ولم نرض بالمقدور فيهم فأمنّا بكل كسير في الوري وعويره

ولما أحس الأمير سيف الدولة بصورة الحال في تناقض الآراء، وتخاذل التدابير
والأهواء، وإشراف الملك على الضياع، بمداهنة النصحاء، واعتيامهم صلاح أنفسهم في
وجوه المقاصد والأنحاء، عدل إلى نيسابور على ما كان يليه من جماهير أوليائه
ومواليه. وحين سمع بكتوزون بإقباله، تزحزح عن نيسابور قصيًا، إبقاء على عدته
وعتاده، وإشفاقا على عدد رجاله وأجناده. وكتب إلى الأمير أبي الحارث بفصوله عن
مكانه أخذا بالوثيقة، ومحاماة على الحقيقة، واحتراسا من غرة اللقاء قبل اختمار العزيمة
والرأي، فحملته سكرة الحادثة، ونزقة الصبا والغرارة، وقلة النظر في العواقب، وعدم
الحظ من التجارب، على الإغذاذ إلى خراسان فيمن أنهضه الإمكان بالمساعدة من
وجوه خاصته وسائر حاشيته. وسار إلى سرخس كالسهم صادرا عن وتره، والسيل سائرا
إلى منحدره. فعلم الأمير سيف الدولة أن قصده إياه من نتائج التغير، وفائل الرأي
والتدبير، ومهانة الناصح والمشير، إذ لم يكن في مئة القوم مقاوته على شدة بأسه،
وملاقاته على قوة مراسه، إذ لو قذفهم ببعض رجومه لغادرهم رمادا تذروه العواصف،
وتقتسمه الشمائل والجنائب، لكنه رأى أن يغضي جفن الاحترام، ويحمي ستر
الاحتشام، ويرعى سابق الحق والذمام؛ فخالف طريقه إلى مرو الروذ مفرجا له عن
نيسابور، إلى أن يتمكن من ارتجاعها بيينة تشارك في معرفتها القاصية والدانية، وحجة
على مناوئيه ومخالفيه تتصورها الحاضرة والبادية. وعطف إلى قنطرة زاغول فخيم بها
مراعيًا لما يسفر عنه التدبير، وينكشف عن حقيقته الضمير.

وبادر بكتوزون إلى مناخ الأمير أبي الحارث، وهناك فائق في قضه وقضيضه، ولقه
وليفه. فلما وصل إليه أنكر محله لديه، لتقصير في حق مقدمه تجنّاه عليه، وشكا إلى

فائق ما أنكره، فشكا إليه فوق ما ذكره، وتداولوا فيما بينهما ذكر معاييه، وتقاولا خشونة جانبه، وحزونة أخلاقه وضرائبه، وأغريا أهل العسكر بخلعه، والتماس الراحة بالاستبدال به، فانجزّوا معهما في جرير المساعدة، حرصا على لذة الاستطراف، واغتناما لنهضة الاستضعاف. فاستحضره بكتوزون بعلّة اجتماع العسكر لمهم احتيج إلى نظره فيه، وإشارته بوجه الصواب في تلافيه، حتى إذا حضره حصره، ووكل به من سمل بصره، غير آو لفجيعة بطليعتي حياته، أحسن ما كان رداء جمال، وعمود اعتدال، وطلعة هلال، وروعة عزة وجلال. ولقد أجهش إليه عند الاستسلام في حاج له ثلاث خفاف المثونة عليه، منها: صيانة من قامت عنه عن ذلّ المناظرة على مال المصادرة. فكأيد به بخلاف حاجته، ونقيض مسألته إلهابا لنار الحسرة في صدره، ومضاعفة لنقل المحنة على ظهره، فعل الموتور بما لا شوى له، ولا بقيا معه.

وعمد هو وفائق إلى أخيه عبد الملك بن نوح وهو أصغر منه سنا، وأضعف ركنا، فأقاماه مقامه، وسدّا به مكانه. وماج الناس بعضهم في بعض للفتنة الشاغرة، والأحوال المتنافرة.

ونذر الناس بالأمير سيف الدولة أنه قد خيم بقنطرة زاغول، فكروا على أدراجهم كاليغاير الراعية راعتها الفوارس، وأحاطت بها الكلاب النواهس، حتى أخذوا قرارهم بمرّو. وأرسل الأمير سيف الدولة إلى الكافلين بالتدبير، يهجن إليهما ما ارتكباه في ولي النعمة من إزالة الحشمة، وإضاعة الحق والحرمة، غير ناظرين للدين، ولا متحرّجين للإسلام والمسلمين، ولا متهيّبين للأحدوث الشنعاء على ألسنة الذاكرين، مدى دهر الداهرين.

وامتدت المراجعة بينهم في الحادث الكارث، وهما يختلانه عن انتهاز الفرصة فيهما، واهتبال الغرة منهما، تطمعا له عن صاحبهما في جديد الرعاية، ومزيد الولاية. وكلما همّ بالإحجام على وجه الاحترام، طالبته سعادة الجدّ بالإقدام، وحرصته على الانتقام للدين والإسلام. ثم رأى أن يزحف عن مناخه إلى ظاهر مرو لتكون لطافة الصلح وجاها، أو سفاهة السيف شفاه.

ولما تسامع القوم بإقباله، دبّ الفشل في تضاعيف أحشائهم، وسرى الوهل في تفاريق أعضائهم، واستطار الخوف في مزاج دمائهم. ولما سقط في أيديهم، ورأوا أنهم

قد ضلوا، قالوا: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]. فأبى الله إلا أن ينتقم منهم بسيف سيف الدولة، جزاء عن فعلهم الفظيع، وخطبهم الشنيع، وسعيهم المذموم عند الجميع، فصَبَّ عليهم صَبَّ عزالي الغيث بنوء المرزمين، غير أنه غيث قطره عيث، وغيم حشوه ضيم، وسحاب حمله عذاب. ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وبرز فائق وبكتوزون وأبو القاسم بن سيمجور بملاوحهم عبد الملك بن نوح وسائر أهل العسكر إلى ظاهر مرو، مقابلين لعسكر الأمير سيف الدولة يعلنان جلادة، ويسرّان بلاد، ويقدمان ظاهر العيون، ويحجمان خيفة الحرب الزبون، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فجيوب الأقطار عليهم مزرورة، وذبول الخذلان عليهم مجرورة، وبوارح الإديار وجوائح الدمار، من كل أوب إليهم محشورة. وظل القوم على علم بأنهم يدمرون على الدمار، ويتهافتون تهافت الفراش في النار، ويقتلون الأنصار بسيف الأنصار، كما قال الله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

وتردد السفراء بينهم وبين الأمير سيف الدولة في مواضعته على سلم يسلمون معها في العاجل من شدة بأسه، ويفتدون بها من مرارة كأسه. فأحسن الأمير سيف الدولة إجابتهم إلى مواضعتهم على علمه باستبطانها للختل والحيلة، واستشعارهما للغدر والخديعة، إلزاما للحجة، وطمسا على الشبهة، وإعدارا إلى الكافة، وبراءة من خطة البغي في دفع المكافة. فما كان إلا أن قوّضت للرحيل خيامه، ونشرت للقفول أعلامه، حتى ثار أوباش القوم على أثره لانتهاج عسكره يظنون بأنفسهم الظنون، وإنما يتعجلون المنون، ويدوسون أذنان الأرقام لو كانوا يشعرون.

فلما رأى الأمير سيف الدولة ركوبهم مقطعة الضلال، واقتحامهم مسبعة الآجال، معلقين خيوط الرقاب بالحرص الغالب، والطمع الكاذب، لا يثنيهم حلماؤهم عن التسفه والتخبط، ولا يحميهم كبراؤهم عن التهور والتورط، علم أن ذلك أمر يراى، وداء خلطه البغي والعناد، وأيقن أن سرهم بالفساد مغمور، وأن السفه إذا لم يمه مأمور.

وأمر بالثائرين فجاش إليهم من حواشي الجيوش من طبقوهم بالهضّ والرّضّ، وأضجعوهم - إلا من شاء الله - على صعيد من الأرض. واستخار الله في الكزّ على بغاة السوء محاكماً إياهم إلى البيض القواطع، ومدليا بينات الرماح الشوارع، ومسجلا على الانتصاف منهم بشهادات النصور والخوامع. وأقبل فرتبّ الجيوش قلبا كتهلان، وميمنة كرضوى، وميسرة كأبان، وحضنّ المصاف بزهاء مائتين من فيلة كرعن الجبال، أو دكن السحاب الثقال، مغشاة بتجافيف لم يعور منها غير حديق النواظر، وحدائد الأنياب الفواقر، تهول ساستها عليها بمرهفات كالبروق الخواطف، وصفارات كالرعود القواصف، وقد نشرت عليها التماثيل السود كأنها الأسود والأسود، يخيّل اضطراب الرياح فيها أنها تزحف للالتهام، أو تنقضّ لاختطاف الهام.

وتعالت عليها أطراف العوامل، فكأنها آجام السواحل، تأويها شياطين الأنس فرسانا، وعفاريت الترك والهند مردا وشبانا، تبصّ عليهم سابغات داود كصفائح الماء تجلوها الشمس سافرة، وتزهاها الشمال سائرة، قد جعلوا الدروع وقاية للأجسام، وظاهروا عليها بالقلوب حرصا على الانتقام، فهم يأنسون بمباشرة القتال، ومساورة الأفيال، واستثارة المنايا عن مرابض الآجال، أنس العيون بأناسيتها الباصرة، والقلوب بأمانيتها الحاضرة.

ووقف الأمير سيف الدولة في القلب بنفسه، وأخويه نصر وإسماعيل ابني ناصر الدولة سبكتكين، وعمه بغراجق، فكأنما عناه أبو فراس بقوله^(١): [الوافر]

علونا جوشنا بأشد منه	وأثبت عند مشتجر الرماح
بجيش جاش بالفرسان حتى	ظننت البر بحرا من سلاح
وألسنة من العذبات حمر	تخاطبنا بأفواه الرياح
وأروع جيشه ليل بهيم	وغرته عمود للصباح
صفوح عند قدرته كريم	قليل الصفح ما بين الصفاح
فكان ثباته للقلب قلبا	وهيته جناحا للجناح

وزحف بهم نحو الخصوم على هيئة وافرة، وهيبة حاضرة، فكادت الأرض تمور، والجبال تثور، والنهار الناهر يحول، والفلك الدائر يزلّ أو يزول. ونذر القوم بإقدامه، وإقبال ألوته وأعلامه، فقامت عليهم القيامة، واستفاضت فيهم الحسرة والندامة، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون علما بما ارتكبوه من الأمر الإمر واجتلبوه من الصيلم الإدّ. وحفزهم حافز الضرورة عن المشورة، ففزعوا إلى الاحتشاد، وبعثوا بالركوب إلى القواد والأفراد، وبرزوا من جدران المدينة، في أفواف وأصباغ يوم الزينة، وهم أكثر ما كانوا قط في معركة لحشرهم من أطراف خراسان وما وراء النهر كل فارس وراجل، وحامل غضب أو عاسل، سوى من استبقتهم تلك الدولة من كل فحل بازل، وبطل باسل، وشجاع مقاتل. وأقاموا الصفوف على الموازة قلبا كمجتمع الليل، وميمنة كمنافع السيل، وميسرة مشحونة بأشاهب الخيل. وماح الفريقان بعضهم في بعض كالجراد المنتشر ضربا يزيل الرؤوس عن العواتق، ويبين الزنود عن المرافق، وطعنا يهتك ودائع الصدور، ويرد مشارع الغيوم والسرور، ورشقا يصيب شواكل الأبصار، ويطلب وراء الفقار مضجع القرار.

واشتدت الحرب حتى تقلصت الشفاه، وتغضنت الجباه، وتقطعت الأنفاس، وتحسرت الفرسان والأفراس، واغبرت الآفاق، واحمرت الحماليق والأحداق. وخاض الأمير سيف الدولة غمرة الحرب يجتذب بالأوهاق مطالع الأعناق، ويختطف بالأرماح ودائع الأرواح، ويغض بالأسياف مجامع الأكتاف، حتى رويت الأرض من بزال الحلو، وغرقت الحوامي في نواعر العروق.

ودامت على حالها في الاحتدام والاضطرام، والافتراس بأنياب الحمام، من حين استقلت الشمس إكليلا على الجبل، إلى أن نفضت ورسا على الأصل، فاضطرب القوم ضجة من حز المناصل، وضيقا بوخز العوالي والعوامل، وتداعوا بحملة تكشف عنهم غمة القتال، بفیصل الإدبار أو الإقبال، فطرحوا الميمنة على الميسرة وهم يظنون وراء ذلك ظنونا، ويخطبون من بنات الأماني أبكارا وعونا، وأبى الله إلا أن يعكس عليهم ما ظنوه، ويحيق بهم وبال ما سنّوه، حين ركبوا من ولي النعمة ما ركبوه، إخفارا لذمته، وإنكارا لحرمته، وإذالة لحشمته، وإضاعة لحق نعمته. وألهم الأمير سيف الدولة أن يزحف إليهم بسواد موقفه، فلم يكن إلّا صدمة واحدة حتى زلت الأقدام عن مقارّها،

وتهاوت الرقاب عن مزارّها، وجعلت تساقط أشخاص الألوية والمطارد، وتبرد النفوس عن ضرب السيوف البوارد، واستمرت الهزيمة بالظلمة عند اعتكار الظلام، فطاروا بين الأقطار كل مطار، وسفت بهم سافية الدمار والإدبار، فلم يلتق منهم بعدها اثنان عند تنازل الأقران، وتناوب الضراب والطعان، ذلك ذكرى للذاكرين، وكذلك يفعل الله بالظالمين.

وجفل عبد الملك بن نوح إلى بخارى، ومعه فائق في أتباعه. وانتبذ بكتوزون إلى نيسابور في أشياعه، وأبو القاسم بن سيمجور إلى قهستان وقد صاروا حزق مزق، وعادوا شذر مذر. وأصبح سيف الدولة وقد أنجز الله له وعده، ونصر جنده وحده، وأسعد الله على رغم الراغمين جدّه، وأعلى يده، وأورى زنده، وساق إليه هدي الملك على غير مهر سوى الشكر، ولا صداق سوى الاستحقاق، وورث دولة آل سامان، وملك ديار خراسان سنة تسع وثمانين وثلثمائة.

ورأى أن يعجل بكتوزون وأبا القاسم السيمجوري عن التجمع ثانيا، والتحدث بالالتقاء آنفا، فانهدر إلى طوس في البحر الأخضر من رجاله وأفياله. وطار بكتوزون بجناح الهرب إلى حدود جرجان، وقفى السلطان على أثره بأرسلان الجاذب، فجعل يطرده طرد الشهب أشخاص العفاريت حتى نفاه من تخوم خراسان.

وولاه السلطان ناحية طوس، ورثه بها فيمن ضم إليه من قواده، وسار إلى هراة مطالعا لأعمالها، ومجددا للعهد بأحوالها. فلم ينشب بكتوزون حين سمع بانثناء عنانه إليها أن كزّ إلى نيسابور فملكها ثانيا يري أنه يناضل عن دولة قد حمّ حمامها، وانقضت أيامها، وناحت عليها أصداؤها وهامها، فلم يزد على أن جشم السلطان كلفة الكزّ عليه قبل أن اطمأنت به قعدته، أو جفّت على طرفه لبدته، فجفل عن نيسابور على سمت أبيورد.

وشدّ السلطان عليه الطلب، فركب المفازة إلى مرو مبقيا بالوحاء على الحياة، ومستظها بالتجاء على النجاة. فخلص إلى مرو فيمن أعانتهم فراهة المراكب، وقوة الصبر على وعثاء تلك المهارب، ورام أن يملكها ويحتجز بها، فمانعه أهلها موالاة للسلطان، وشكرا لما وسعهم من العدل والإحسان، فشنّ عليهم غارة شعواء، وخبطهم بالسيوف خبط عشواء، وركب مفازة أمل حتى عبر النهر إلى بخارى.

ولما خلت خراسان من بكتوزون وأصحابه، سَرَب السلطان أرسلان الجاذب والي طوس إلى قهستان لنقضها عن أبي القاسم بن سيمجور إذ كان يظن الظنون في تدبيره، ويطمع في الارتياش عن تحسيره، فواقعه بها، وطرده إلى نواحي طبس عنها. وولّى السلطان أخاه الأمير نصر بن ناصر الدين سبكتكين قيادة الجيوش بخراسان، ورتبه بنيسابور على ما كان يليه آل سيمجور على قديم الزمان، وامتد إلى بلخ مستقر أبيه ناصر الدين، فاتخذها حضرة الملك ودار السلام.

ولما انتهى السلطان إلى بعض حدود مرو الروذ منصرفه إليها ركب على رسم التصيّد في خف من العدد، ومعه أخوه إسماعيل بن ناصر الدين، و قائد من قواد أبيه يعرف بنوشتكين كاج قد وتره إحساسه بما آل أمره على يده لا غير، إذ كان كأحد رفقاءه في الإثبات والإطلاق، والإحسان والإرفاق. فبينما السلطان في هزة الاقتناص، إذ حانت منه التفاتة، فإذا به قابضا على قبعة سيفه يروم انتضاءه، وقد رمى بطرفه وجه إسماعيل يطلب إيماءه. ولاح للسلطان إنكار إسماعيل عليه بدلائل رمزه وإيماضه، وشواهد ارتياعه وامتعاضه، غير أن استشارته إياه فيما جناه قد فرشت له بساط التهمة، وجرحت منه جارحة الثقة.

وبادر السلطان إلى مضربه، وقد أمر بالاحتياط عليه في وقته، وحكّم فيه خواص غلمان، فأخذته السيوف حتى تطايرت أعضاؤه، وتناثرت عليه أوصاله وأجزاؤه. ثم دعا السلطان بأخيه إسماعيل فأدلى بعذره، وجحد العلم بما أبداه الخائن من خائنة سره وغدره. وجرت مخاوضات ومراسلات اقتضاه آخرها أن يستوثق منه لنفسه وملكه، إذ كان لا يلتقي سيفان في غمد، ولا يجتمع فحلان في شَوْل.

وبلغني أن السلطان بعد استنزاله إياه عن القلعة بغزنة بسط منه في بعض مجالس أنسه، وباحثه بلسان الاستدراج عند حث السقاة عما كان ينويه في معاملته أن لو ملك من أمره ما ملكه هو منه، فحملته سلامة صدره، ونشوة خمره، على أن قال: كان رأيي فيك أن أوعز بك إلى بعض القلاع موسعا عليك فيما تقترحه من دار، وغلمة وجوار، ورزق على قدر الكفاية دار. فلما ارتاب السلطان عند الحادثة به، عامله بعين ما نواه، وقابله بجنس ما أبداه، واستودعه والي الجوزجان أبا الحارث ممكنا مما يشتهي، ممتعا بمثل ما كان ينويه، فله هذا الفعال الذي طرّز ديباجة الكرم، وغبر في مساعي ملوك

الأمم. وقد يستغرب هذا الإسجاح من وجه وإن كان لا يستبدع من آخر، لأن هناك عاطفة القريبى والرحم، ولكن الشأن في الأجانب الذين تغلق رقابهم الأجرام الفادحة، والجنايات الفاضحة، كيف يسلط فيهم رأيه على هواه، ويستبقي الجاني بما جناه، فلم يسمع بأعف منه في الجنايات سيفاً، ولا أحسن على فورة الزلات صبراً. واحتج لهذه الخصلة الفاضلة بأن الملك الحازم من يسلب الجاني في حال سخطه ما يمكنه الوفاء بعينه أو بمثله عند رضاه، وجرح المال يؤسى بالتعويض والإخلاف، فأما النفوس فليس لإتلافها من تلاف.

ذكر الخلع التي أفاضها القادر بالله أمير المؤمنين على السلطان يمين الدولة وأمين الملة

أوجب القادر بالله أمير المؤمنين له خلعا لم يسمع بمثلها محمولة من دار الخلافة، ولقبه في كتابه يمين الدولة وأمين الملة لقبا كان مصونا في صدف الشرف، لم تنله قط أيدي الغاصة على كثرة الطلاب وتنافس الملوك في الألقاب، فتبوا سرير الملك، واجتاب خلعة المجد، وأذاع شعار الطاعة لأمر المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين. وقام بين يديه أمراء خراسان سماطين مقيمين رسم الخدمة، وملتزمين حكم الهيئة. وحبسهم بعد الإذن العام على مجلس الأنس، وأمر لكل منهم، ولسائر غلمانته وخاصة ووجوه أوليائه وحاشيته سحابة يومه من روائع الخلع والصلوات، ونفائس الأحبية والكرامات، بما لم يتسع لمثله ملك ملك، ولم يف ببعضه ضمير أمير.

واستجابت خراسان لأمره، وفرعت منابرها بذكره، واستقت الأمور عن آخرها في كنف إيالته، واستوسقت الأعمال في ضمن كفالته. وفرض على نفسه في كل عام غزوا في الهند ينصر به الدين، ويقمع أعداء الله الملحدين، فكتب الله له أجره، وأحسن نصره، كذلك قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

ذكر انصراف عبد الملك بن نوح إلى بخارى

ولما وصل عبد الملك بن نوح إلى بخارى في الفلّ ومعه فائق، وتلاحق به بكتوزون في أصحابه، وأولياء عبد الملك في مضامته، طمعوا آنفا في الاستقلال، وتكهنوا لأنفسهم بطالع الإقبال، وتحدثوا بالاحتشاد لأنف القتال. واخترم من بينهم فائق في شعبان سنة تسع وثمانين وثلثمائة، وهو وجه الرّزمة، وطراز الحلة، وعمدة الجملة، والملقب بعميد الدولة، فتمكن الانخزال من صدورهم، وسرى الانحلال في أمورهم.

وانحدر أيلك خان إلى باب بخارى يظهر لعبد الملك وسائر أجناده وأنجاده موالة خداع واحتيال، وممالة استدراج واغتيال، وهم يظنون استظهارا على ما عراهم، واحتياطا لما شدّ عراهم، مغرورين عن واجب الاستبصار، والاحتراس عن حبائل الأوتار، حتى أنسهم بلطائف برّه وإقباله، وأطمعهم بزخارف أقواله وأفعاله.

وركب إليه بكتوزون وینالتکین الفائقي وسائر قواد عبد الملك صباح يوم، فلما اطمأن بهم المجلس، أمر باعتقالهم، والقبض على أصحابهم ودوابهم، واستلاب أسلحتهم وأسلابهم، فلم ينج منهم إلا الفارد الشارد، والنادر المبادر.

وبلغ الخبر عبد الملك، فوجد عدّته قليلة، وقوته مستحيلة، فلم يجد غير الاستخفاء حيلة، ودخل أيلك بخارى يوم الثلاثاء العاشر من ذي القعدة سنة تسع وثمانين وثلثمائة، ونزل دار الإمارة، وبثّ على عبد الملك عيون الطلب، وطلائع الرغبة والرهب، حتى ظفر به، فحمّله إلى أوزكند فمات بها. وطفئت بقية الشعلة من دولة آل سامان بما وراء النهر وأطراف خراسان، فصارت كأن لم تغن بالأمس، كدأب الدول الماضية في القرون الخالية، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١].